الدكتور محمد البهي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

تفسير سورة الشعراء

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ ـ شارع الجمهورية ـ عابدين
القاهرة ت : ٩٣٧٤٧٠

الدكتور محمد البهي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم



القرآن في مواجهة

الناشر: مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - بعابدين
القاهرة - ت: ٩٣٦٤٧٠

الطبعة الأولى

رجب ١٣٩٦ هـ

يوليو ١٩٧٦ م

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ت : ٢٢٠٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشعراء

إن سورة الشعراء ترد على اتهام الماديين المكيين بأن نزول الوحي بالقرآن : يساوق اتصال الشياطين بالكهان ، وأنه لذلك لايخرج عن نمط كهانتهم . كما ترد على اتهامهم للرسول عليه الصلاة والسلام فى دعوته إلى الوحدة فى الألوهية : بأنه شاعر .

• فجاء فى أولها (فى الآيتين : الأولى ، والثانية) :تأكيد:أنالقرآن كتاب الله المبين : « تلك آيات الكتاب المبين » . . وأنه فى صدقه وعدم تعرضه للشك فيه ، كما : الطاء — والسين — والميم ، من أحرف الهجاء العربى . فكما لا يشك أى عربى فى أن هذه الأحرف الثلاثة هى منأحرف الهجاء العربى ... كذلك يجب ألا يشك إنسان فى أن القرآن كتاب الله . ولذا كان القسم : بـ« طسم » على أنه كتاب الله .

• وجاء فى نهايتها — بعد الاستشهاد بالتاريخ فى شأن بعض المجتمعات المادية — نفى : أن يكون للشياطين صلة بالقرآن (فى الآية : العاشرة بعد المائتين) .« وما تنزلت به الشياطين (أى ما نزلت بهعلىبطءوفى تدرج) ». وتوضيح عدم صلاحية الشياطين لتلقى الغيب على العموم (فى الآية: الحادية عشرة بعد المائتين) : « وما ينبغى لهم (أى ما ينبغى أن تنزل الشياطين بالقرآن ، لأنهم مصدر شر ، بينما القرآن مصدر هداية) » .وبيان استحالة أنهم يستطيعون تلقى القرآن من الله جل شأنه (فى الآية الحادية عشرة بعد المائتين) :« وما يستطيعون» (لأن علم الغيب خاص بالله وحده ، ولا يطلع

على غيبه إلا من ارتضى هو من رسول . والشياطين ليسوا أهلا للرسالة . وعندئذ طالما يفقدون الأهلية للرسالة يستحيل عليهم أن يتمكنوا من الغيب ، أمام قدرة الله الكاملة) » . ثم تأكيد أنهم معزولون عن سمع ما في السماء ، وبعيدون كل البعد عنه (في الآية الثانية عشرة بعد المائتين) : « **إنهم عن السمع لمعزولون** (وذلك لفقدان الأهلية ، ولاستحالة تمكنهم من الغيب) » . ولذا لا صلة للشياطين بالقرآن إطلاقا . وادعاء الماديين المكيين بأن الوحي بالقرآن على الرسول عليه السلام يساوق ما جرى عليه العرف بين كهانهم من أن علم الغيب يأتي إليهم من شياطين الجن : « **وأنه كان رجال من الإنس** (وهم الكهان) **يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا** » (١) . . . هو ادعاء كاذب ، وواضح اختلاقه .

• أما العرف الشائع بين كهانهم من أن الشياطين تنزل عليهم من وقت لآخر لتزودهم بعلم السماء . . فهو عرف لا ينتهي أمره إلا إلى أكاذيب : فشياطين الجن تنزل على كل أفاك أثيم (في الآيتين : الحادية والعشرين ، والثانية والعشرين بعد المائتين) : « **هل أنبئكم على من تنزل الشياطين** (أي تنزل من وقت لآخر) ؟ . **تنزل على كل أفاك أثيم** » (أي على كل مختلق عاص . وهم الكهان . وإذن فالكهان ليست لديهم أهلية النقل الصحيح ، وليست لهم استقامة فيما يقولون . لأنهم كذابون وعاصون . والشياطين قبلهم معزولون عن علم الغيب . وهو ما لدى الله . وليس هناك نوعان من الغيب . أحدهما غيب صادق ، وهو ما يعبر عنه كتاب الله لأي

---

(١) الجن : ٦ .

رسول أرسل من قبله . وثانيهما غيب كاذب ، وهو ما يأتى به شياطين الجن إلى الكهان . وإذا كان الشياطين معزولين عن علم الله ، فما يوحى به الشياطين إلى أوليائهم — وهم الكهان — كذب .. وما ينقله الكهان عنهم كذلك : كذب (فى الآية الثالثة والعشرين بعد المائتين) : « يلقون السمع (أى يلقى الشياطين إلى الكهان ما زعموا : أنهم سمعوه من السماء . ويلقى الكهان على أتباعهم ما ادعوا : سماعه من شياطين الجن) وأكثرهم كاذبون » (أى وأكثر الكهان — بجانب أنهم غير أمناء على النقل الصحيح — يتصفون بإضافة الكذب إلى ما سمعوه كذبا) » . وينتهى هذا العرف الشائع بين كهان مكة إلى : ترويج كذب مسموع ، مضاف إليه كذب مختلق .

والحقيقة المستخلصة من هذا العرف :

أولا — أن الشياطين معزولون عن علم الغيب تماما . ولذا : فما ينسب إليهم نقله عن الله فى حديثه مع الملائكة كذب محض .

ثانيا — أن الكهان أفاكون وعاصون . ولذا لا يؤتمنون على نقل صحيح . وما يشيعونه بين الأتباع هو كذب مزدوج : فى أصله منقول ، قد يضاف إليه كذب آخر مستحدث . ولا صلة إطلاقا بين علم الكهانة وعلم الله ، وفرق بين القرآن وبين الكهانة : ذلك يعبر عن علم الله . وهذه تعبر عن كذب الشياطين وأباطيل الكهان .

وبعض المفسرين يرى : أن الضمير فى قوله تعالى : « وأكثرهم كاذبون » .. يعود إلى الشياطين . ومعنى ذلك : أن من بينهم من يكون صادقا . وكيف يكون هناك بعض شياطين الجن الذين ينقلون غيب السماء إلى الكهان . . صادقا ؟ وهم جميعا معزولون عن السمع : « وإنهم عن السمع لمعزولون » ؟ أين مصدر صدقه فى العلم الآن ؟ . أهو الصدفة ؟ أهو التخمين ؟ . وهل

هكذا كان يدعى الكهان فى نقلهم عن الشياطين ؟ : إنهم كانوا يقولون بالصدفة أو بالتخمين ؟

وكيف يكون بعض الشياطين صادقاً فيما يقول، والقرآن يحكى عن أثرهم جميعا دون استثناء فى الكهان : أنهم زادوهم رهقا وحمقا : « **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً** » . . كيف يكون أكثر الصدق فى القول حمقا وجهلا ؟ ثم كيف يكون الماديون المنكرون للبعث أصحاب صدق فيما يدعون ، وقد جاء فى وصف هؤلاء الشياطين قوله تعالى أيضا : « **وأنهم ظنوا** (أى أن هؤلاء الشياطين ظنوا) **كما ظننتم** (أى أنتم أيها الكهان) : **أن لن يبعث الله أحدا** » .

ولذا كان الأسلم : أن يعود الضمير فى قول الله تعالى : « وأكثرهم كاذبون إلى معنى الجمع المأخوذ من قوله السابق على ذلك : « تنزل على كل أفاك أثيم » ومعنى : أن أكثر الأفاكين العاصين كاذبون ... أنهم يضيفون جديداً من الكذب على ما ينقلونه عن الشياطين ، وهو كذب فى ذاته . وعندئذ ما يرويه الكهان إلى أتباعهم قد يكون كذبا مزدوجا فى أصله ، وفى إضافته له .

وقبول احتمال : أن بعض الشياطين كانا صادقا فيما ينقله . . يعرض القرآن إلى قبول ادعاء مساوقته لهذا البعض الصادق من أقوالهم ، وهو نفس ما يدعيه الماديون المكيون . . وهو نفس ما يرده القرآن فى هذه السورة بالنفى العام القاطع : « **إنهم عن السمع لمعزولون** » .

***

● ولكى يوضح القرآن أن اتهام المكيين للقرآن فى نزوله على الرسول عليه السلام : بأنه يساوق ما تنزل به الشياطين — فى ادعائهم — على الكهان:

هو اتهام باطل . . تسوق سورة الشعراء — بالإضافة إلى نفى هذا الاتهام وتأكيد عدم صحته — أمثلة من انحرافات المجتمعات المادية السابقة ، تدل على أن الماديين فى كل مجتمع لا يقصدون بإثارتهم الاتهامات ضد الرسالة الالهية : إقامة الحجج وتوضيح أسباب رفضها . وإنما يستهدفون التشويش ، وإعلان تحديها ، للابقاء على مصالح لهم ترتبط بهذا التحدى :

- فهى تبرز انحراف مجتمع فرعون فى تعسفه فى المعاملة البشرية ، وقصة موسى معه .
- وانحراف مجتمع إبراهيم فى عبادة الأوثان ، وقصة إبراهيم معه :
- وانحراف مجتمع نوح كذلك فى عبادة الأوثان ، وقصة نوح معه .
- وانحراف مجتمع عاد فى الاعتزاز بالقوة المادية والطغيان بها ، وقصة هود معه .
- وانحراف مجتمع ثمود فى سوء توزيع الثروة القومية ، وقصة صالح معه .
- وانحراف مجتمع لوط فى الشذوذ فى المعاملة الجنسية ، وقصة لوط معه .
- وقصة أهل مدين فى الإجحاف فى المعاملات المالية ، وقصة شعيب معه .

وفى انحرافات هذه المجتمعات المادية تتجلى ظاهرة مشتركة فى الاتهام والادعاء ، وهى أن الرسول من البشر ، وليس من الملائكة .. وأن التابعين له من الأراذل أو المستضعفين وليسوا من الملأ والزعماء . وهذه ظاهرة يمليها الاستناد إلى المادية والاعتزاز بقوتها فى العصبية أو المال .

• وجاء في نهايتها أيضا (في الآيات الثلاث . الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين .. والسادسة والعشرين بعد المائتين) : نفي أن يكون الرسول عليه السلام واحداً من الشعراء ، كماادعوا ذلك في سورةالصافات، فيما يحكيه الله عنهم في قوله تعالى : « إنهم كانوا اذا قيل لهم : لا اله إلا الله يستكبرون ويقولون : أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ؟ » (١) وإذا كان القرآن قد رد على ادعائهم هذا عقب ذكره بقوله سبحانه : «بل جاء بالحق وصدق المرسلين » (٢) . فذكر : أنه عليه السلام أتى بالحق ، ولم يأت بالشعر ، وعلم بذلك ضمنا وعلى وجه الإجمال : أن الشعر علىالضد من الحق .. فإن سورة الشعراء تكفلت بتفصيل الباطل الذى ينطوى عليه الشعر . فهى تذكر أمارتين لهذا الباطل :

الأمارة الأولى ــ أن الذين يتبعون الشعر ، ويأخذون بمنطوقه هم الضالون إذ الشعراء بأشعارهم ينتقلون من الضد إلى الضد ، من الهجاء إلى المدح .. ومن الغزل إلى الحروب .. فهم في كل واد يهيمون ، لا يتحرون الواقع ، ولا يقصدونه كذلك . ومن يتبعهم إذاً يكون من الذين لا يعرفون الطريق الصحيح للهداية .

الأمارة الثانية ــ أن الشعراء لذلك : لا ينطبق قولهم على فعلهم، يقولون شيئا ، ويفعلون ــ أو يعتقدون ــ شيئا آخر . فينطق لسانهم بما لا تعتقد قلوبهم ، أو بما لا يؤيده واقع بالفعل .

بينما القرآن لسان حق وتعبير صدق . ويشير إلى سبيل واحدة ، هي : سبيل الله ، أو سبيل الهداية ، فهو يقصد إلى غاية واحدة ، هي غاية التوجيه

---

(١) الصافات : آيتا : ٣٥ ، ٣٦. (٢) الصافات : آية : ٣٧ .

السليم للبشرية : وشتان إذن بين خط مستقيم هو خط القرآن . وخط ذى تعاريج متعددة ، هو : خط الشعر والشعراء .

ولكن يستثنى من الشعر ، فى كذبه وضلاله ، نوع واحد ، هو ذلك النوع :

١ – الذى يباشره المؤمنون أصحاب الأعمال الصالحة : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

٢ – والذى يعبر عن الله ورسالته فى الهداية البشرية : « وذكروا الله كثيراً »

٣ – والذى ينطق به أولئكم المؤمنون ، بعد ما انتصروا على أعدائهم من الذين اعتدوا عليهم : « وانتصروا من بعد ما ظلموا »

فإن هذا النوع من الشعر ، كما يساوق الدعوة فى جوهرها وموضوعها يساير فى التعبير سبيل الهداية فى الاستقامة .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾

يقسم القرآن : بالطاء — والسين — والميم (طسم) وهى أحرف ثلاثة من أحرف الهجاء العربى : ليوضح أن ما أنزل على الرسول عليه السلام ، هو : كتاب الله وقرآنه . والله سبحانه يواجه بالقرآن : العرب فى مكة وفيما وراءها . ولا يشك أحد من العرب فى أن الأحرف الثلاثة — وكذلك الأحرف الأخرى التى تكون منها القسم فى السور التسع والعشرين من سور القرآن — هى من أحرف الهجاء العربى .

والقسم بهذه الأحرف يعنى : أن مدخول القسم فى السور التسع والعشرين هو فى ظهوره ووضوحه وصحة وقوعه : يساوى عدم الشك فى الأحرف المقسم بها على أنها من أحرف الهجاء العربى .

ومدخول القسم فى خمس وعشرين من بين تسع وعشرين سورة ، هو القرآن ، وتأكيد نزوله على الرسول عليه السلام من عند الله .

والسور الأربع الباقية : واحدة منها ، وهى : سورة العنكبوت ، لتأكيد ابتلاء الإنسان فى هذه الحياة . .

والثانية ، وهى : سورة الروم ، لتأكيد هزيمة الامبراطورية الرومانية فى الشرق بعد انتصارها على الفرس . .

والثالثة ، وهى : مريم لتأكيد منة الله على زكريا عليه السلام ..

والرابعة ، وهى : سورة القلم ، لتأكيد سلامة الرسول عليه السلام سلامة بدنية وعقلية .

وكأن – فى واقع الأمر – القسم بالأحرف الهجائية فى سور القرآن الكريم ، هو : لتأكيد صحة هذا القرآن ووجوب عدم الشك فيه من قبل العرب . والقسم فى ذاته إذن يعتبر دليلا فى مواجهة العرب على ضعف إثارتهم الشك فيه : كادعائهم : أنه يساوق ما تنزل به الشياطين على كهانهم .. أو أنه من أساطير الأولين .. أو أنه افتراء خاص من محمد (عليه السلام) .. وكأنه يقول لهم : كما لا تشكون فى الأحرف هذه .. أو تلك : إنها من حروف الهجاء العربى ، فالعلم بها بديهى إليكم .. كذلك يجب أن يخرج عن دائرة شككم : كون القرآن من عند الله . فصدقه أمر لا ريب فيه .

والرأى فى أن حروف الهجاء التى تبتدىء بها السور التسع والعشرون : يستهدف بها القسم على صحة ماجاء فى مدخوله من أن القرآن كتاب الله .. هو الرأى القريب من جعل القرآن كتاب هداية للناس جميعاً . وليس فيه من الألغاز والطلاسم مايدفع ببعض عباراته إلى أن تخرج تخريجاً يميل بها إلى الكهانة أو الخرافة .

والقرآن ، لأنه للناس جميعا يجب أن يساوق الطبيعة البشرية فى خصائصها وفى كل ما لها من تحولات .

وما يذكره المفسرون فى القرآن مثلا ، عن بعض الآيات على أنه لتسلية الرسول عليه السلام ، أو لشد عزمه .. أو لمعاتبته .. هو مماجاء فيه مساوقا لهذه الطبيعة .

والقرآن وقد جاء به بشر من عند الله ، هو محمد بن عبدالله عليه السلام.. لم يجيء به ليوضع فى برج عاجى . وإنما ليطبق فى حياة الإنسان ، وفى حياة كل فرد فى أى مجتمع بشرى .

ولذا : كان تفسير القرآن بما يحوله إلى معان ليست فى غير مقدور الإنسان ، وفى غير تلاؤم لواقعه ، وللقوانين التى تحكم مجتمعه — وهى القوانين الطبيعية البشرية — يعتبر إخراجا بالقرآن إلى ما فوق مستوى الإنسان ولعالم آخر غير عالمه : « تلك آيات الكتاب المبين (أى ذلك هو القرآن فى وضوح صدقه وعدم الشك فيه) لعلك باخع نفسك : ألا يكونوا مؤمنين (وربما يزعجك أو يحزنك ، بل ربما تنخلع نفسك : أن ترى هؤلاء المكيين الماديين يرفضون الإيمان بالقرآن ، ويتعللون فى رفضهم : أن يكونوا مؤمنين به ، وبرسالتك : بعلل شتى ، ويطلبون أن تكون أمارة صدقك أمارة مادية ، وليست القرآن ، وقد طلبوا واحدة من أمارات عديدة فيما يحكيه الله عنهم فى قوله : « وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت ، علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى : هل كنت إلا بشرا رسولا »(١) . لكن لا ينبغى أن تحزن ، أو يخيب أملك فيهم . لأنا نعرف طبيعتهم ومواقف هذه الطبيعة من الإيمان) . إن نشأ تنزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين (أى ولذا لسنا بعاجزين عن أن نأتى لهم بآية مادية ، وبأمارة محسوسة على صدق رسالتك وليست أية آية ،

---

(١) الإسراء ٩٠ — ٩٣ .

ولكن بآية ، يخضع لها كبراؤهم وزعماؤهم ، خضوعاً تاما ومستمرا. ولكننا لم نشأ ذلك ، وآثرنا لحكمة نعلمها : أن يكون القرآن هو الآية الدالة على صدق رسالة الرسول محمد بن عبد الله ، عليه السلام . وربما تكون هذه الحكمة متمثلة : فى أن البشرية على عهده صلى الله عليه وسلم دخلت طور الرشد الإنسانى ، ولم تعد تقنعها الأمارات المحسوسة . بل الأمر الذى أصبح يلائمها هو « الموضوعية » .. هو ما وراء الأشخاص والمحسات .. هو « الحقيقة » فى ذاتها : والقرآن هو التعبير عن الحقيقة الإلهية . . أى عن تلك الحقيقة التى وضعت أمام البشر ، من قبل الله جل جلاله) . وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين (وطبيعة هؤلاء تدفعهم دائما إلى رفض أى وحى ينزل على الرسول عليه السلام ويتلى عليهم. فرفضهم متجدد ومستمر . وهذا يدل على أنهم سوف لا يقتنعون بالأمارة المادية إن جاءتهم . وطلبهم إياها يعبر فقط عن جدل رخيص منهم ، يصرفون به الأنظار عن معارضتهم وتحديهم القائم على العناد والمستهدف إلى تحقيق المصلحة الذاتية وحدها) فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون .

والآن موقفهم من القرآن هو موقف المكذبين .

والقرآن كتاب الله الذى يعبر عن رسالته منذ جاء بها رسول الله إلى البشر . وقد كان لأمثالهم فى المجتمعات المادية السابقة موقف من هذه الرسالة ، يشبه موقفهم الآن من التكذيب والسخرية بها .

وسيقص القرآن فى هذه السورة — بعد قليل — أخبار تلك المجتمعات من الدمار والتغيير الشامل ، بسبب تكذيب الزعماء فيها واستهزائهم بما أرسل به الرسول الخاص : وما يحمله الرسل جميعا فى رسالاتهم هو :

الدعوة إلى التوحيد فى الألوهية كأساس للهداية الإلهية . وما يقصه القرآن سيعلنون به فور نزول الوحى به) » .

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾

ومع ذلك — إن كانوا يتشبثون بالأمارات المادية فى صدق دلالتها على ماجاءت دليلا عليه — فهذه آية مادية يرونها بأعينهم ، ويلمسونها بأيديهم ، ويفيدون منها فائدة محسوسة ،وجاءت دليلا على وحدة الألوهية ،ورغم ذلك يشركون مع الله الخالق أصناماً ، لا تنفع ولا تضر : « أو لم يروا إلى الأرض: كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم . إن فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين (فكون الأرض تخرج من الطيبات أزواجا متعددة : فى المذاق .. واللون .. والحجم ، لخدمة الإنسان فى معيشته : دليل على وحدة الخالق فى ألوهيته . لأن تعدد أنواع النبات كان يؤذن بتضاربها فى الصلاحية وعدم الصلاحية فى معيشة الإنسان . فتوحيدها مع تعددها واختلافها فى خدمة الإنسان فى معيشته دليل على أن الموجد لها واحد، استهدف منها جميعا هدفا واحداً ومصلحة واحدة .

ومع وضوح هذه الدلالة على وحدة الخالق .. فإن هؤلاء الماديين بمكة لم يتحول منهم إلى الإيمان بالله وحده إلا عدد قليل .

أما أكثريتهم فبقيت على عدم الإيمان به . وإذن طلبهم للدليل المادى على صدق الرسول عليه السلام — بدلا من القرآن — لا ينبىء عن جدية لهم ، وسعى منهم نحو الإيمان به . وإنما هو تضييع وقت ، وتشويش على

الدعوة فقط) . وإن ربك لهو العزيز الرحيم (والله سبحانه لا تعجزه مؤاخذة هؤلاء الماديين على عنادهم ورفضهم للايمان برسالتك . فهو العزيز الذى لا تنال من قوته أية قوة أخرى . ومع ذلك فهو رحيم بمن يعود منهم عن عناده وتحديه لرسالتك ، ويسلك الطريق المستقيم الذى تدعو إليه) .

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾

وهذه آية مادية ثانية ظهرت فى رسالة موسى إلى فرعون بشأن تخليص بنى إسرائيل من طغيان فرعون وهم مهاجرون بمصر من أجل السعى وراء الرزق . فهل آمن بها مجتمع فرعون المادى وتحول عن الشرك إلى عبادة الله وحده ؟ إنه بقى على كفره ومعارضته ، وانتهى أمره ولم يزل فى طغيانه :

« وإذ نادى ربك موسى : أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون ، ألا يتقون؟

(واذكر يا محمد — عليك صلوات الله وسلامه — إلى هؤلاء الماديين المكيين : أمارة أخرى طلبها مجتمع فرعون المادى دليلا على صدق رسالة الرسول إليه وهو موسى عليك السلام . وعندما جاء بها الرسول بقى هذا المجتمع المادى على كفره وضلاله . وكان عاقبة أمره أن زال كلية من الوجود ... اذكر إذ كلف الله جل جلاله موسى : بالرسالة إلى قوم فرعون الظالمين . وهم لا ينتهون

عن الظلم لطغيانهم فى المادية) . قال : رب إنى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون . (ولكن موسى عند ما كلف بالرسالة إلى فرعون : خشى أن يكذبه فرعون وقومه . وعندئذ يضيق صدره ويعجز لسانه ، فلا يؤدى الرسالة . وبالأخص أنه مدين بقتل أحد المصريين ، كان مشتبكا مع واحد من بنى إسرائيل فى مصر ، عند ما كان مقيما بها . واضطر من أجل إلى ذلك إلى الهجرة منها — رغم أنه تربى فيها — إلى مدين ، كى ينجو من مؤامرة القتل : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال يا موسى : إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين . فخرج منها خائفا يترقب ، قال : رب نجنى من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين ، قال : عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل(١) » ولهذه الأسباب طلب من الله أن يعينه بأخيه هارون . واستجاب له ربه) . قال : كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون (وفى استجابة الله له : نفى أن يلحقه هو وأخاه هارون أذى من فرعون وقومه ، وطمأنهما على حياتهما ، وشد أزرهما بالذهاب إليه ومعها الأمارات المادية للرسالة . وفى تطمين الله لهما أوضح : أنه سيكون معهما . وقوله : إنا معكم مستمعون . تعبير يقصد منه سبحانه ألا يتخلى عنهما أبداً فى هذه الرسالة). فأتيا فرعون ، فقولا : إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل (وأرشدهما سبحانه : أنهما يتوجهان إلى فرعون ويبلغانه برسالتهما من قبل الله . وهى رسالة تخليص بنى إسرائيل الموجودين بمصر من الحكم هناك ، والسماح لهم بالعودة إلى : « مدين » كما كانوا قبل الهجرة — فى سبيل العيش — إلى مصر) » .

---

(١) القصص ٢٠ — ٢ .

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾

وفرعون فى غطرسته — وكذلك كل زعيم لمجتمع مادى — لا يطيق أن يواجهه أحد من أتباعه يوما ما : بنقد حكمه وتصرفاته . فرسالة موسى إليه لم تكن فى الواقع سوى أن عاب عليه : تصرفاته إزاء بنى إسرائيل ، كطائفة من الناس تعيش تحت حكمه ، وطلب إليه من أجل ذلك أن يمنحهم حرية الخروج من إمرته ومن دائرة ملكه ..

ويعتبر موسى فى نظر فرعون من أجل هذه الرسالة : خارجا على نظام الحكم ،أو به لوثة من الجنون . كما يعتبر أى نقد لزعامة فى أى مجتمع مادى فيما مضى ، أو فى الوقت الحاضر ، أو فى الآتى : نوعا من الشذوذ فى التصرفات أو الجنون ، لا تقبله زعامة المجتمع بحال ، وتتصرف حياله تصرفا لا إنسانيا. ولذا فإن فرعون : « قال : ألم نربك فينا وليداً ، ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين (فأنكر على موسى مايذكره من رسالة له، ورأى فيها انتقاصا لهيبته وخروجا على إرادته وطاعته. وذلك بأن امتن عليه — وفى الوقت نفسه يؤنبه — بأن مصر هى التى احتضنته منذ ولادته ، وأنه قضى فيها سنوات من عمره ، قبل أن يفر منها إلى مدين، بسبب قتله أحد المصريين . ويشير إلى هذا الجانب من حياة موسى ما ذكر مفصلا فى سورة طه فى قول الله تعالى : « ولقد مننا عليك مرة أخرى :

إذ أوحينا إلى أمك مايوحى . أن اقذفيه فى التابوت . فاقذفيه فى اليم . فليلقه اليم بالساحل . يأخذه عدو لى وعدو له . وألقيت عليك محبة منى .ولتصنع على عينى . إذ تمشى أختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله . فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن . وقتلت نفسا فنجيناك من الغم . وفتناك فتونا . فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى . واصطنعتك لنفسى . اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى . اذهبا إلى فرعون إنه طغى .. إلى أن يقول : فأتياه فقولا : إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل . ولا تعذبهم . قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى »(١) . ثم بجانب امتنان فرعون — فى رده — على موسى باحتضانه ، وتربيته ،وبتمكينهمن الإقامة فى مصر جزءاكبيرا من حياته،. ذكره أيضا بجنايته على أحد المصريين قبل هربه . ثم حكم عليه بأنه من الخارجين على طاعته والكافرين بنعمته، إذكيف ينقد تصرفاته الآن ويعيب عليها باسم رسالة من الله) . قال : فعلتها إذاً وأنا من الضالين (فكان جواب موسى بشأن ما باشره من جناية القتل .. أنه باشرها ولم يكن متبصراً من أمرها .. باشرها وهو لا يدرى الصواب فيها . وهو إذن لم يقصد إلى القتل ، ثما جاء نتيجة جهل منه) ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين (أما الهرب من مصر إلى مدين فكان خوفا من تتبع نظام الحكم له . وقد جاء هربه وإقامته بمدينفاتحة خير له . إذ اختاره الله لرسالته، وأسند إليه الحكم فى مجتمع بنى إسرائيل) . وتلكنعمة تمنهاعلى: أن عبدت بنى إسرائيل (وكان جوابه على إعلان فرعون الامتنان عليه : بالتربية والإقامة فى مصر : أنه كان واحد من بنى إ سرائيل المقيمين بمصر،

---

(١) طه: ٣٧– ٤٧

وأنه هو وهم جميعا لم يعيشوا فيها عيشة كرامة ، وأنهم كانوا يعاملون معاملة الأرقاء تحت حكمه : « نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض ، وجعل أهلها شيعا : يستضعف طائفة منهم . يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم . إنه كان من المفسدين » .. فهل يعد الاسترقاق نعمة ؟ . وهل يمتن بالعبث بالكرامة البشرية ، والظلم بالتفرقة بين من هم فى ظل حكم واحد ؟ . ولهذا : كان امتنان فرعون مردودا عليه وهو فى الواقع ينطوى على خزى له) » .

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ
إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ
وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى
لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾

وعلى أثر رد موسى على فرعون متهما إياه : بالظلم واسترقاق بعض الطوائف فى حكمه ..سأله فرعون فيما جاء فى قوله وقول أخيه معا : إنا رسولا رب العالمين عن : من هو رب العالمين : « قال فرعون : وما رب العالمين ؟ قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين (وكان جواب موسى له : أنه صاحب الربوبية فى الوجود كله من سماوية وأرضية ، وفيما بين السموات والأرض . ولكن لا يدرك ربوبيته فى الوجود كله إلا من هو على

---

(١) القصص : ٣ ، ٤.

استعداد للايمان والتصديق .. من هو على استعداد لتقبل اليقين وطرح الشك ولكنكم أنتم لا تملكون هذا الاستعداد . لأن ما يجرى فى حكمكم ، وتحت سمعكم وبصركم من الظلم والاضطهاد يبعد استعدادكم للايمان ، بأن هناك ربا فوق فرعون وملئه) . قال لمن حوله : ألا تستمعون (ينبه من يجلسون معه ويشاركونه الحكم ، ويزيد من يقظتهم إلى ما أجاب به موسى . إذ ما أجاب به من ربوبية الله للوجود كله : ينفى ألوهية فرعون فى قومه ، وبذلك يسقط عرشه ويسقط معه المشاركون له فى الحكم) وقال : ربكم ورب آبائكم الأولين (ولزيادة الأمر وضوحا فى نفوسهم كرر فرعون إجابة موسى له ، وترجمها بما يثير نفوسهم أكثر وأكثر . فعبر : بأن رب السموات والأرض ومابينهما — كما ذكر موسى — هو ربكم أنتم ورب آبائكم وأجدادكم ومن تنتسبون إليهم منذ القدم) . قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون (ومن أجل هذه الإجابة المثيرة — فى تصورهم — حكم عليه فرعون بأنه رسول مجنون . وتهمة الجنون لأى ناقد لنظام الحكم فى المجتمع المادى .. تهمة شائعة وظاهرة ملازمة لأى مجتمع مادى فى أى عصر من عصور الإنسانية . لأنه المجتمع البشرى الوحيد الذى تمارس زعامته الاستبداد والطغيان فى الحكم فيه ، وتتخذ من أفراده تجربة للاستمتاع بالحكم والجاه) قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . (ولكن موسى عاد فكرر من جديد: أن رب العالمين — وهو الله سبحانه وتعالى — هو رب الوجود كله . . هو العالم .. هو رب المشرق ، ورب المغرب ، ورب ما بين المشرق والمغرب. وماورد فى التعبير القرآنى كناية عن عالمية ربوبيته سبحانه . ومع أن موسى كرر عالمية الربوبية لله تعالى بتعبير آخر ، فإنه ذكر هنا : أن إدراك ذلك يتوقف على من يستخدم عقله ومنطقه . والماديون فى وقوعهم تحت تأثير

الاتجاد المادى ، ليس لديهم استعداد لاستخدام العقل والمنطق فى قبول مايخالف هواهم ، وما تحرص عليه نفوسهم من بقاء الجاه والسلطة بأيديهم . وفرعون وملؤه هم مجموعة من الماديين ، طغت بماديتها فى الحكم . ولذا يستحيل عليها أن تعقل : أن الله رب العالم كله) . قال : لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين (ولم يجد فرعون إزاء ماكرره موسى من ربوبية الله للوجود كله — ومن بين مناطق الوجود : مصر وحكامها — ومن تنديده بأنهم يقفون موقف غير العقلاء فى قبول مايخالف هواهم . . إلا أن يهدده بالسجن ، بعد أن اتهمه بالجنون ، إذا لم يرجع عن رسالته ، ويعد إلى تأليه فرعون وحده .

والتهديد بالسجن أو الاعتقال ظاهرة أخرى من ظواهر الزعامة الاستبدادية فى سياسة المجتمع المادى . لأنها سبيل إلى إخفاء المعارضة والنقد لما تباشره من حكم .

ورسالة موسى لفرعون هى معارضة ونقد لتصرفاته فيه) » .



قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

وكان رد موسى على تهديد فرعون له بالسجن ، إن لم يعدل عن الإيمان برب العالمين وهو : الله سبحانه وتعالى ، ويقصر تأليهه عليه وحده . . أن سأله : أهذا التهديد قائم حتى عندما آتيك بأمارة واضحة على صدقي فيما أقول ؟ : « قال : أو لو جئتك بشيء مبين ؟ . قال فأت به إن كنت من الصادقين (وتحداه فرعون — بعد سؤاله هذا — بأن يأتي بهذه الأمارة الواضحة

الدالة على رسالته من الله جل شأنه . وما يريد موسى أن يواجه به فرعون وملأه هو من الدلائل المادية . وسيواجهه بثلاثة منها . ورغم أنها جميعها كانت قاطعة فى دلالتها على صدق موسى فى رسالته ، فلم يصدقه فرعون ، وأمر بتتبعه والحيلولة بينه وبين الخروج من مصر ، هو ومن آمن به من بنى إسرائيل فيها ، مما يدل على أن الماديين فى أى مجتمع — فى مكة ، أو فى مصر أو فى غيرهما — عندما يطلبون من الرسول المرسل إليهم دليلا ماديا على صدقه .. ليسوا جادين فى السعى أو فى الرغبة فى الإيمان برسالته . وإنما طلبهم الدليل المادى : صورة من صور التحدى ، وإثارة للشك فى رسالته) .

فألقى عصاه ، فإذا هى ثعبان مبين (وهنا رى موسى عصاه التى كان يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه عندما كان يرعاها .؟ فإذا هى حية عظيمة تتحرك ، وكان هـذا منه دليلا ماديا من قبل الله على صدقه فى الرسالة) . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين (وجاء بالدليل الثانى ، وهو : أن أخرج يده من جيبه فرآها المشاهدون بيضاء صافية فى بياضها) . قال الملأ حوله : إن هذا لساحر عليم (وهنا — بعد مشاهدة فرعون ومن معه هاتين الأمارتين الماديتين — وجه نظر قومه إلى صنعة موسى ووصفها بالسحر ، كما وصفه هو بالساحر العليم . ولم يستطع فرعون أن يرى فيما باشره موسى معجزة من قبل الله على صدقه فى الرسالة . لأنه لم يزل واقعا تحت تأثير الزعامة وجاهها فى مجتمعه المادى . ورأى ذلك منه سحرا ، لأن السحر كان شائعا فى وقته ، وكان حرفة ومهنة لبعض أتباعه. فظن أن موسى قد تعلمه عندما أقام بمصر ، وتفوق فيه عن الآخرين من السحرة ممن هم من قومه) . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون ؟ (كما ظن أن موسى بمباشرته السحر وبتفوقه فيه قد أصبح خطرا على ملكه ونظام حكمه . لأن المصريين فى ذلك الوقت كانوا يتبعون السحرة ،

ويؤمنون بريادتهم . ولذ اتجه إلى النخبة فى قومه يستشيرها ويسألها الرأى فيما يصنع إزاء درء هذا الخطر المفاجىء. وهكذا: شأن الزعامات الاستبدادية فى المجتمعات المادية فى كل وقت ، تتوهم الخطر عليها فى كل حركة تنبىء عن الخروج عن المألوف لها فى طاعتها :

فى النقد البرىء للمصلحة العامة ..

فى التفوق فى العلم أو فى المهارة ..

فى شجاعة الشخصية عند المواجهة ..

وتشتد فى الحيطة ، وتستخدم ما أمكن من الوسائل لإسكات كل صوت يرتفع ، ويشتم منه العصيان وعدم الطاعة) . قالوا : أرجه ، وأخاه ، وابعث فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم (وأشاروا عليه عندئذ بأمرين :

أولا : بإرجاء الرد على موسى وهارون بعض الوقت .

وثانيا : بحشد جميع الطاقات فى مدن مصر التى تباشر السحر . على أن تلتقى بموسى وهارون فى موعد يحدد لذلك) . فجمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون . لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين (وفعلا اجتمع السحرة من كل أنحاء مصر وتحدد الموعد للمباراة مع موسى ، وأخطر الناس فى مصر مقدما : أنهم سيحتفلون بسحرتهم ، عندما يكون لهم النصر على موسى . ويتبعونهم كرواد لهم . وقد كان فرعون متفائلا بنصرهم . لأنهم كثرة فى العدد . بينما موسى واحد. والمجتمع المادى يعنى عادة بالكم ويضع عليه أهمية كبرى . ويكفى فى نظر زعامته الاستبدادية من أجل النجاح والنصر أن يفوق الكم لديها : ما لأعدائها من عدد) . فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئن لنا لأجراً إن كنا نحن

الغالبين ؟ قال : نعم ، وإنكم إذاً لمن المقربين (وعلى عادة ما هو متبع فى المجتمع المادى كظاهرة من ظواهره : ساوم السحرة فرعون على أجورهم قبل لقائهم مع موسى فى المباراة العامة . فليس فى المجتمع المادى إيمان بقيم عليا يدفع إلى الحركة وإلى اللقاء مع الأعداء فى ميدان منافسة أوقتال . وإنما الدافع والمحرك دائما هو الجزاء المادى وحده. وطواعية لهذه الظاهرة وعدهم فرعون بالأجر المادى الجزيل ، كما وعدهم بأن يكونوا من المقربين حوله ومن ملئه وأصفيائه . أى بأن يكونوا من أصحاب النفوذ والجاه ، والثراء عن طريق مالهم من جاه ونفوذ) . قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون فألقوا حبالهم وعصيهم ، وقالوا : بعزة فرعون ، إنالنحن الغالبون (وعندما اجتمع السحرة الذين حشدوا إلى لقاء موسى بهم .. سألهم عن أن يمارسوا صنعتهم : فألقوا ما بأيديهم من حبال وعصى على الأرض فى مهارة فائقة حتى تبدوا حركتها مشابهة لحركات الثعابين والحيات وهى تزحف على الأرض ، واستعانوا فى نصرهم فى هذه المباراة بعزة إلههم فرعون وبقدرته على عادة العابد فى الاستعانة بمعبوده عند الشدائد والملمات) . فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون . فألقى السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون (ولكن ما إن ألقى موسى عصاه التى بيده على الأرض حتى أظهرت خداع هؤلاء السحرة وكذبهم ، وتلقفت كل ما طرحوه من حبال وعصى . وعندئذ اتضح أنه لم تتحول حبالهم وعصيهم إلى ثعابين وحيات بالفعل وإنما كانت مهارتهم هى التى أودعت فى أوهام المشاهدين : أنها كذلك . .. ثم هذا سجد السحرة خضوعا لله سبحانه الذى أرسل موسى وأيده بهذه الأمارة المادية الثالثة – بعد الأمارتين السابقتين – تلك الأمارة التى فصلت ما بين الصدق والكذب . كما أعلنوا تحويل إيمانهم من فرعون الإله – كما كانوا يعتقدون – .. إلى الله رب

العالمين ، الذى جاء برسالته موسى وهارون إلى فرعون. أى حولوا إيمانهم من هذا الموجود المحدود .. إلى من له العالمية فى ألوهيته ، ومن له التدبير فى الوجود كله ، وفوق فرعون ومن هو على شاكلة فرعون. وهذا كناية عن الانتقال من الكفر إلى الايمان) . قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون : لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم أجمعين (وهنا اشتد غيظ فرعون على السحرة الذين جمعوا لهزيمة موسى بسبب إيمانهم : برسالته ، وبربه .ولامهم على هذا الايمان، ورماهم بأنهم تلاميذه فى السحر ، ووعدهم بالانتقام منهم، انتقاما يبرز للعيان وذلك بقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى — أو بالعكس — لكل فرد منهم ، ثم فى النهاية بتصليبهم . وقد كان الأمران : قطع الأيدى والأرجل من خلاف ثم التصليب .. شائعين فى حكم الزعامات الاستبدادية فى المجتمعات المادية. لأنهما يدلان على الوحشية واللاإنسانية فى معاملة الخصوم ، خشية ضياع الحكم وسقوط الجاه) . قالوا : لا ضير ، إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا : أن كنا أول المؤمنين (ولكن لم تحفل السحرة التى آمنت برسالة موسى : بتهديد فرعون لهم بالانتقام الوحشى .وكان سندها فى ذلك هو الإيمان بالآخرة . « إنا إلى ربنا منقلبون » بعد الإيمان بالله رب العالمين .

والإيمان بالآخرة معناه عدم التركيز على الحياة الدنيا وحدها ، والنظر إليها على أنها حياة تجربة واختبار ينتهى أمرها حتما إلى المرحلة الثانية فى حياة الانسان ، وهى الحياة الأبدية التى فيها الاستقرار .

وإذا كانت حياة الدنيا حياة تجربة واختبار ، فمهما كان فيها من نعيم ، أو عذاب : فإنه أمر عابر لا يدوم .

وإيمان السحرة بلقاء الله فى الآخرة يكمل إيمانهم برب موسى وهارون

وبذا يكمل انتقالهم من الشرك فى الألوهية إلى الوحدة فيها ومن المادية الطاغية إلى الروحية الانسانية ، أو روحية الدين . وسيكون عوضهم عن انتقام فرعون منهم بسبب إيمانهم : هو أملهم فى غفران الله ما كان لهم من خطايا وانحرافات سبقت على تحولهم إلى الإيمان به . وهو أمل يقوم على أنهم كانوا أول المؤمنين بموسى وبرسالته — وراء بنى إسرائيل — فى مجتمع فرعون بمصر.

وهكذا : استمدوا من الايمان بالله قوة يواجهون بها ظلم فرعون . .

واستمدوا منه أملا يوصلهم إلى الاطمئنان فى حياتهم الثانية ..

واستمدوا منه عزما يحول بينهم وبين الأسف على حياتهم المادية فى ظل المال ، والجاه ، والنفوذ) .

* وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

وخشية على موسى ومن آمن معه من اضطهاد فرعون وظلمه أوحى إليه الله بأن يخرج مع المؤمنين برسالته من مصر تحت جناح الليل : « وأوحينا

إلى موسى : أن أسر بعبادى ، إنكم متبعون . فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين (إذ قد أمر فرعون بالفعل بحشد الناس من جميع مدن مصر لحصار موسى ومن معه من المؤمنين بالله رب العالمين ، تمهيداً لتوقيع العقاب عليهم وخشية من انتشار خطره عليه وعلى حكمه فى قومه) . إن هؤلاء لشرذمة قليلون (وأوضح أن موسى ومن آمن معه مجموعة قليلة يمكن حصارها ووضع حد لخطرها). وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون (ومع قلة هذه المجموعة فإنها مصدر قلق وغيظ لفرعون وملئه . ولهذا فهم محتاطون منهم ومن خطرهم) . فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم (ومع احتياط فرعون لحصار موسى ومن معه تمهيداً لانزال العقاب بهم .. فإن الله يسر أمر خروجهم من مصر . وقد كانوا يسكنون فى بلد توافرت فيها : الحدائق ومنابع المياه ومصادر الثروة ، والاقامة الطيبة فى مساكن عالية ، بالقياس إلى « مدين » التى يهاجرون إليها الآن على خليج العقبة) . كذلك وأورثناها بنى إسرائيل (أى وعلى هذا النحو من توفر أسباب الحياة الرغدة التى يسرناها لبنى إسرائيل فى مصر طيلة وجودهم فيها ، وقبل هجرتهم إلى مدين مع موسى والله يمتن على بنى إسرائيل بهذا اللون من الحياة فى مصر كما يمتن عليهم بالانجاء من فرعون وملئه تمهيداً لأن يلقى عليهم تبعة الكفر والرجوع إلى الوثنية وهم فى الطريق إلى مدين ، بعد أن اجتازوا البحر :

« واتخذ قوم موسى من بعده (أى من بعد ما تركهم مسرعا إلى لقاء ربه فى الجانب الأيمن من الطور) من حليهم عجلا جسدا له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا واتخذوه وكانوا ظالمين » (١) .

---

(١) الأعراف ، ١٤٨.

فأتبعوهم مشرقين (وفى خروج بنى إسرائيل من مصر، وقبل اجتيازهم خليج البحر الأحمر ، كانت جنود فرعون على إثرهم وقت شروق الشمس) فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى : إنا لمدركون . قال : كلا ، إن معى ربى سيهدين (وخشى أصحاب موسى أن يلحقهم جنود فرعون عندما رأى بعضهم بعضا . ولكن موسى طمأنهم إلى أن الله سيهديهم سبل النجاة منهم). فأوحينا إلى موسى : أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ، فكان كل فرق كالطود العظيم ، وأزلفنا ثم الآخرين : وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين (وقد ألهمهم الله هذا السبيل فأمر موسى بأن يضرب البحر بعصاه ، فتجزأت المياه إلى جزأين عظيمين كجبلين شاهقين وانكشف قاع البحر بينهما ، وأصبح هذا القاع ممراً يابسا من الجانب الغربى إلى الجانب الشرقى منه . فسار فيه أصحاب موسى ، واقترب منهم جنود فرعون ، حتى إذا وصل أصحاب موسى إلى الجانب الشرقى ، عادت مياه البحر شمالا وجنوبا واختلط بعضها ببعض وجنود فرعون بعد لم يصل واحد منهم إلى اليابس فى الجانب الشرقى . وهنا غطتهم مياه البحر وغرقوا جميعا . وبذلك نجا موسى وصحبه ، وهلك فرعون وجنوده) . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (وهذه آية مادية واضحة ، دالة على صدق موسى ورسالته من قبل الله تعالى ، وتوجب على قوم فرعون كما توجب على بنى إسرائيل الإيمان بالله وحده . ومع ذلك لم يؤمن قوم فرعون بموسى وبرسالته ، ولم يستمر بنو إسرائيل الذين هاجروا من مصر فى صحبته على إيمانهم بالله وحده . فبقى قوم فرعون على كفرهم ، وعاد بنو إسرائيل ممن خرجوا من مصر إلى وثنيتهم . ولذا كان أكثر الناس من الجانبين غير مؤمن بالله ، نتيجة لتمكن الاتجاه المادى من نفوسهم) . وإن ربك لهو العزيز الرحيم (والله سبحانه لا يترك كافراً يعبث بكفره ، ولا موحدا يرتد عن إيمانه إلى وثنيته بغير عقاب . فهو

العزيز الجانب الذى لا يدفع عقابه . كما لا يترك مؤمنا به وحده ، دون أن يؤازره وينصره فى محنته وشدائده ، ينجيه من مؤامرات عدائه فهو الرحيم بعباده المؤمنين .

وقصة موسى — هنا فى هذه السورة — مع فرعون ، وفى جزء منها مع بنى إسرائيل ، تشير إلى أن المكيين فى طلبهم من رسول الله محمد عليه السلام دليلا ماديا على رسالته . لا يهدفون إلى سعى جدى نحو الإيمان به وبرسالته. فهذه عصا موسى أظهرت عدة أمارات غير عادية تكفى تأكيداً لإقناع من يسعى إلى الإيمان .. بالإيمان بالله وحده. ومع ذلك أكثر الناس لا يؤمنون. أولئكم الذين شاهدوا هذه الأمارات بأعينهم وعاشوها فى تجربة مع أنفسهم. مما يدل على أن رواسب المادية لو تمكنت فى النفوس فإن من القليل غير الشائع : أن تتحول هذه النفوس عما تورطت فيه من إلحاد أو وثنية وشرك).

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾

وهذا دليل مادى آخر تسوقه قصة إبراهيم فى رسالته إلى قومه . وهو دليل وقف طبيعة النار عن فاعليتها فى الإحراق . فقد أراد كبراء قومه انتقاما

منه ، ودرءا لخطر رسالته على زعامتهم ووضعهم فى المجتمع : أن يحرقوه بالنار ، فتحولت هذه النار بفعل الله من كونها حارقة : إلى كونها باردة . وأصبحت سلاماً على إبراهيم : « قال : أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم ؟ . أف لكم ،ولما تعبدون من دون الله . أفلا تعقلون ؟ . قالوا حرقوه ، وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا : يانار كونى برداً وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطا الى الأرض التى باركنا فيها للعالمين »(١) .. ومع وجود هذه الأمارة المادية التى تدل على صدق إبراهيم فى رسالته .. فإن قومه لم يؤمنوا به ، مما يدل كذلك على أن المكيين غير جادين فيما طلبوا من رسول الله عليه الصلاة والسلام من آية مادية للإيمان به : « واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه : ماتعبدون ؟ قالوا : نعبد أصناما فنظل لها عاكفين(يوجه القرآن هنا : الخطاب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام . أى اذكر للمشركين المكيين قصة إبراهيم وما انتهت إليه من عدم إيمان قومه برسالته، بعد أن رأوا بأعينهم الأمارة المادية على صدقه . فقد ابتدأ إبراهيم قومه — استنكارا واستخفافا بشأنهم فى الاعتقاد — بالسؤال عما يعبدون ، .وكان جوابهم إياه :

أنهم يعبدون أصناما .

وأنهم كذلك لاينفكون عن عبادتها .

وفى إجابتهم له على هذا النحو : تحد لاستنكاره واستخفافه بأصنامهم، فى الصيغة التى ألقى بها السؤال) . قال. هل يسمعونكم إذ تدعون؟أوينفعونكم أو يضرون ؟ (ورد عليهم إبراهيم موضحاً إياهم . أنهم يعبدون مالايسمع

---

(١) الأنبياء . ٦٦–٧١ .

إذا نودى أو دعى . وما لا ينفع إذا طلبت مساعدته ، وما لا يضر إذا أهمل أو أهين أو تحدى . والذى يوفر احترامه وعبادته ، ويخضع لموجود كهذا : لا يدرك كرامة نفسه ، ويستخف فى الوقت ذاته بعقله وبمنطقه ، أو هو واقع تحت تأثير الإلف والعادة ، دون إعادة لتقييم ما ورثه منهما) . قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون (وكان جوابهم . أنهم ورثوا العبادة لهذه الأصنام عن آبائهم . وأنهم لم يفكروا فى مضمون ما ورثوه من عقيدة . وبذلك يسجلون على أنفسهم . أنهم يمتهنون كرامتهم ، ويحجبون عقلهم عن التفكير والتقييم لواقع الحياة) . قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون ؟ .. أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى ، إلا رب العالمين (وواجههم إبراهيم عندئذ : بأن جميع ما يعبدون هم وآباؤهم جيلا بعد جيل — عدا الله رب العالمين — هم أعداء له ، تجب عليه مقاومتهم بالدعوة إلى الوحدة فى الألوهية لله رب العالمين . والاستثناء الذى جاء فى قول إبراهيم : « فإنهم عدو لى ، إلا رب العالمين » ... يفيد أن قضية وجود الله سبحانه وتعالى هنا أمر مفروغ منه . أى ليست موضع شك ولا خلاف . وإنما الخلاف فى تعدد الآلهة أو فى إشراك ما عدا الله من موجودات فى هذا الكون . مع الله فى العبودية والألوهية . فتأليه الإنسان لما عداه أمر مودع فى طبيعته . إذ التأليه هو توفير الاحترام ، والخضوع لمن يؤله .

والانسان يدرك بفطرته أن فى الوجود وفى محيطه ما هو أعظم منه قدرة ونفاذا ، فيوفر له الاحترام ويخضع له فى غير تردد . والأمر بعد ذلك فى نظر الانسان :

أولا . ما هو الأعظم فى القدرة والنفاذ أكثر من الإنسان المدرك ، يستحق عبادته وتأليهه إذا كان واحدا ؟ .

أهو إنسان آخر ؟ .

أهو كائن طبيعى ؟ .

أهو موجود مصنوع صنعه ويصنعه الإنسان ؟ كالصنم ... أو العلم ... أو الدولة ... أو المجتمع .

أهو الانسانية ؟ .

أهو الله تعالى الذى تمثل صفاته الكمال المطلق ؟ .

وثانيا : هل الأعظم فى القدرة والنفاذ أكثر من الانسان المدرك، والذى يستحق العبادة : فوق الواحد ؟ .

هل هو متعدد ؟ .

وعندئذ تكون الألوهية موزعة بين عدد من المعبودات والآلهة ؟ .

والقضية إذن هى قضية الوحدة أو التعدد فى الألوهية ، وليست قضية وجود الإله فى ذاته . فوجود الإله أمر لانزاع فيه ... وجوده وجود فطرى فى الإنسان . ثم فى دائرة الوحدة فى الألوهية يكون الخلاف بين رب العالمين ، وبين إله آخر عداه يؤله من فريق من الناس ، قل هذا الفريق أو كثر .

وفى دائرة التعدد فى الألوهية يكون الخلاف بين أصنام هى مصنوعة من الأحجار ، وكائنات طبيعية : كالأنهار ، والنار ، والصحراء ، وبعض أنواع الحيوان ، وبين منظمات أو مخلوقات للانسان . كالعلم ، والدولة ، والحزب ، والمجتمع .

والتعدد فى التأليه هو الوثنية .

ويؤثر القرآن فى تحديد وحدة الألوهية : التعبير بالله ... أو بالله رب العالمين ، فالله ، أو الله رب العالمين ، ينفى ما عداه فى دائرة الوحدة فى الألوهية

وينفى أيضاً جميع ما يقع فى دائرة التعدد أو الوثنية . والله رب العالمين هو ذلك الكامل كمالا مطلقا منذ الأزل . وصفاته قيم عليا يجب على المؤمن به أن يتقرب منها فى عبادته . وذلك بمحاكاتها فى سلوكه ، ومواقفه ، وتصرفاته . وفى علاقاته بالآخرين .

وإبراهيم عندما يقول هنا : « أفرأيتم ما كنتم تعبدون ؟ . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى ، إلا رب العالمين » يساير هدف الرسالة الالهية من نفى كل إله ، عدا الله رب العالمين .وقد جاء القرآن بهذه الرسالة معبراً عنها فى صدق وفى وضوح . ولذا نالت قضية وحدة الله فى الألوهية — وتنال — اهتماماً كبيراً لدى المسلمين .وهم المؤمنون برسالة محمد عليه السلام .وأصبحت هذه القضية الأمر المميز بينهم وبين من عداهم فى كل المجتمعات البشرية) « الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين. والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين (وقد آثر إبراهيم — بوحى من الله — أن يتخير من صفات الله رب العالمين ما يجعل التمايز بينه وبين أصنامهم أمراً واضحاً فى مجال الماديات .. أى ما يجعله على النقيض تماما مما لهذه الأصنام . فوصفه بأنه الخالق ، وبأنه يهدى للايمان ، بينما أصنامهم لاتجيب من يدعوها . « قال : هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ » وما لايسمع النداء هو عاجز عن الخلق والهداية بالأولى . ووصفه بأنه الرزاق : أى هو الذى يطعم ويسقى وبأنه يشفى من المرض ، فهو ينفع .. بينما أصنامهم لاتنفع ولا تضر فى شؤون الدنيا . « أو ينفعونكم أو يضرون ؟ » . ووصفه بأنه الذى يميت ويحيى فهو القادر . بينما أصنامهم لاتستطيع الحركة ، وبالتالى من باب أولى : لاتستطيع الإحياء والإماتة .

وإذن فشتان الآن بين ما يدعو إليه إبراهيم فى رسالته : من لا إله إلا الله ، وبين ما يدعون هم من أصنام .

وشتان أيضا بين من يؤمنون بالله وحده . وبين من يؤمنون بالأصنام . أولئكم يعبدون ما هو أعظم على سبيل القطع فى الوجود . وهؤلاء يعبدون ما هو أحقر على سبيل القطع فى محيط الانسان وكونه) . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين (كما وصف إبراهيم ربه بأنه وحده - لا غيره - هو الذى يغفر الذنوب يوم الجزاء ، ووصف إبراهيم الله تعالى بهذا الوصف : ينطوى على الايمان منه بالبعث واليوم الآخر . والبعث أمر ينكره الماديون . ولذلك لا يتجه هؤلاء إلى الشفاعة أو الندم على ما فات منهم إلا لحظة أن يروا يوم الجزاء حقيقة واقعة . ولكن المؤمن بيوم البعث أو الجزاء على بينة وهو فى دنياه من : أن الله هو الذى يغفر الذنوب . ولذا يعبده ويرجو فى عبادته أن يكون وفق الصراط المستقيم فى الهداية . وإذا أذنب أو أخطأ كإنسان فإنه يتوب إلى الله متابا . عسى أن يرحمه ويغفر له خطأه يوم القيامة) .

***

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)

وبعد أن فرغ إبراهيم من محاورته مع قومه اتجه إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء فقال : « رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين (أى أعطنى الحكم فى دنياى فى قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويبتعدون عن الشرك والوثنية . وإعطاء الحكم هو التمكن من تنفيذ الرسالة الالهية وتطبيقها فى حياة مجتمع مؤمن . وقد استجاب الله لدعائه . فبعد أن نجاه بالهجرة إلى الأرض التى بارك فيها — وهى أرض كنعان أو الشام — وهب له ذرية صالحة فيها ، وتفضل عليها بالحكم والرسالة . (ونجيناه ولوطا الى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة . وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا . وأوحينا إليهم فعل

الخيرات ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين » (١) . .
كما وهبه من جانب آخر . إسماعيل ، ومن ذرية إسماعيل محمد عليه السلام ، وتفضل عليه بالحكم والرسالة . وببعثة الرسول فى مكة حقق الله جل شأنه أيضاً ماكان يتمناه إبراهيم من بعده فى الأرض التى هاجر منها . « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك . ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . إنك أنت العزيز الحكيم » (٢) .

أما فى الآخرة فقد دعا إبراهيم ربه بأن يلحقه بالصالحين . وذلك ليس بعزيز على الله ، بعد أن مكن له وللذريته من بعده فى دنياه) . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين . واجعلنى من ورثة جنة النعيم (كما دعاه سبحانه : فى أن يكون أمره فى الدنيا ثناء بين الآخرين بعده ، وأن يكون فى آخرته من أولئكم الذين يجزون بجنة النعيم وبالمتعة الدائمة . وقد شاء الله أن يكون له تاريخ مجيد بنفسه وبذريته ، وهو تاريخ أصحاب الرسالات الاصلاحية بين البشر إلى يومنا هذا . وإلى يوم البعث) ، واغفر لأبى ، إنه كان من الضالين (وقد تملكته -- وهو يدعو لنفسه -- عاطفة البنوة نحو أبيه فاستغفر الله له ، علماً منه : أنه سبحانه لا يغفر لمن كفر ومات على كفره . وعدم غفران الله للكافرين والمشركين به إن ماتوا على كفرهم وشركهم أمر يقرره القرآن كمبدأ فى أصل الرسالة الإلهية ، فى قوله تعالى . « إن الذين كفروا ، وصدوا عن سبيل الله ، ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم » (٣) . وقد واجه الله جل شأنه رسوله نوحاً من قبل فى شأن ابنه بهذا المبدأ ، عندما دعاه

---

(١) الأنبياء : ٧١-٧٣ .

(٢) البقرة ، ١٢٩ .

(٣) محمد : ٣٤ .

نوح بقوله :

«ونادى نوح ربه فقال : رب إن ابنى من أهلى . وإن وعدك الحق وأنت احكم الحاكمين . قال . يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ماليس لك به علم. إنى أعظك أن تكون من الجاهلين»(١). كما واجه رسوله محمداً عليه السلام رداً على ما كان يتردد فى نفسه ويرجوه فى شأن أقربائه من غفران الله لهم ، بقوله : (واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم . لن يغفر الله لهم إن الله لايهدى القوم الفاسقين)(٢) . ولكنها العاطفه البشرية عند إبراهيم والأمل القوى القائم عليها . هما الأمران اللذان دفعاه إلى أن يصرح بالدعاء لأبيه ، فى أن يغفر له ، مع ضلاله وشركه) . ولا تخزنى يوم يبعثون، يوم لاينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم (أى ولا تعرضنى للهوان والمذلة بين قومى يوم يبعثون فى الناس جميعاً . يوم لايكون هنالك سند لأحد مما اعتاد الناس فى دنياهم أن يستندوا إليه ويحتموا به ، من . قوة المال ، أو قوة العصبية فى الأولاد .. يوم لاينفع فيه كسند أو كوسيلة : إلا سلامة القلب وطهارة الطوية . بالإيمان بالله وحده ، وبالعمل الصالح.

وإبراهيم وإن كان يعرف منزلته عند الله إلا أنه من فرط خشيته من الله يلتجىء إليه بالدعاء فى عدم تعريضه للمذلة والهوان.إذ أقسى مايتعرض له الكريم ليس ضياع المال ، أو فقد العصبية ، أو تولى الجاه عنه . وإنما الهوان ، وأمام من يعرفه ، وبالأخص إذا كان قد اختلف معه). وأزلفت الجنة للمتقين ، وبرزت الجحيم للغاوين (وفى يوم البعث هذا ، تبدو

---

(١) هود : ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) المنافقون : ٥ ، ٦ .

الجنة قريبة لأولئكم المتقين الذين تجنبوا الشرك والعمل السيء ، كما تبرز وتظهر ظهوراً واضحاً ، نار الجحيم لهؤلاء الضالين من أهل الشرك والوثنية المادية) وقيل لهم : أين ماكنتم تعبدون من دون الله ؟ هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ [(ويسأل هؤلاء الغاوون تهكماً وسخرية بهم عن أصنامهم وماكانوا يعبدون من دون الله : هل لما كانوا يعبدون اليوم من أثر فى مساعدتهم وفى إنقاذهم من نار الجحيم التى تبدو لهم على مرأى منهم ؟

إنهم عاجزون عن أن يتقدموا لهم العون ، أو يعينوا أنفسهم . . إنهم لاينصرونهم ولايستطيعون نصر أنفسهم . ولذا فهم صائرون حتما إلى نار جهنم ، وسائرون إليها) فكبكبوا فيها هم والغاوون . وجنود إبليس أجمعون (وآل أمر الجميع إلى أن ألقوا على رؤوسهم فى تلك النار : ماعبدوهم من دون الله . . ومن كانوا على ضلال وغواية فى عبادتهم . . وجميع الأشرار عداهم من الآخرين) قالوا وهم فيها يختصمون : تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين (وعندئذ بعد أن أدخلوا الجحيم تخاصموا فيما بينهم . والتخاصم بين الماديين ظاهرة رئيسية بين ظواهر مجتمعهم ، عندما تشتد بهم المحنة ويقسو ألم الأحداث عليهم . لأنهم يعرفون استمتاعاً ، ولكن لايعرفون تحملا وصبرا على مشاق تلحق بهم . ولذا يجتمعون على اقتناص المتعة ، ويتفرقون ويختصمون عند الشدة. تخاصموا لأنه ظهر لهم الآن وهم فى نار جهنم ضلالهم ظهوراً مؤكداً : فى أنهم سووا فى العبادة والألوهية بين الله جل شأنه من جانب ، وهو رب العالمين ، وبين ماعداه من معبودات أخرى ألهوها تقليداً لآبائهم ، أو تحت ضغط الكبراء والزعماء فيهم) . وما أضلنا إلا المجرمون . فما لنا من شافعين . ولا صديق حميم . فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين (وأعلنوا عندما

اتضح لهم ضلالهم في التسوية فى العبادة بين رب العالمين والمعبودات الأخرى:
أن ضلالهم فى ذلك يرجع إلى نفوذ المجرمين فيهم وهم المستكبرون والزعماء
فى المجتمع . كما أعلنوا حسرتهم : أنه لاشفيع يشفع لهم فى ضلالهم فى هذه
الآونة عند الله ، ولاصديق يخلص لهم ينجيهم مما آل إليه أمرهم . وتمنوا
مالا يقع : وهو أن يعودوا إلى الدنيا مرة أخرى . وعندئذ يؤمنون بالله
واليوم الآخر ، ويعملون عملا صالحاً . فهم فى حال يأس . واليأس إذا حل
بإنسان كان مساوقاً على الأقل لعذاب النار) . إن فى ذلك لآية ، وما كان
أكثرهم مؤمنين (وفى قصة إبراهيم أمارة مادية على صدقه : فتحول
النار التى أراد قومه أن يحرقوه فيها : إلى برد وسلام عليه . . ونجاته
بهجرته إلى أرض الله التى بارك فيها وهى كنعان : دليل على أن سنده
فى دعوته ورسالته كان من قبل الله وحده . ومع هذه الأمارة المادية الواضحة
بقى أكثر قومه من الكافرين ، ولم يؤمنوا بعد برسالته . وهذا الوضع —
ومثله — من شأنه أن يعضد : أن طلب المكيين على عهد الرسول عليه
السلام للمعجزة المادية — وراء القرآن — ليس تعبيراً عن جدية لهم فى السعى
نحو الإيمان به . فلو جاء إليهم بدليل مادى على نحو ماورد فى قصة إبراهيم
أو موسى من قبل ، لما آمنوا به كذلك . لأن تغلغل الاتجاه المادى فى نفوسهم
يحول دون الإيمان والتحول إلى أن يكونوا من أتباعه بعد أن كانوا سادة
فى قومهم) . وإن ربك لهو العزيز الرحيم (ومع موقف هؤلاء الماديين من
الكفر والتحدى فإن الله جل شأنه لايغلب ، فهو العزيز . . ولاينتقم فهو
الرحيم : ويغفر لمن تاب وعاد إلى الإيمان) .

* * *

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾

وهذه أمارة مادية رابعة تحكيها قصة نوح مع قومه . وهي إغراق الكافرين برسالته بالطوفان أو الفيضان ، ونجاته هو ومن آمن معه في الفلك المشحون إلى جبل الجودي ، بعد أن استوت عليه : « وقيل : يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر ، استوت على الجودي ، وقيل بعدا للقوم الظالمين(١) . ومع هذه الأمارة المادية الدالة على صدق نوح عليه السلام في رسالته فإن أكثر قومه ظل كافرا برسالته : « كذبت قوم نوح المرسلين (لم يرسل إلى قوم نوح إلا نوح وحده . ولم يكن هناك رسل عديدون . ولكن الآية تذكر : المرسلين « كذبت قوم نوح المرسلين » . . بصيغة الجمع · لأن عهد نوح قد طال في قومه : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون » (٢) .. وتكررت الأجيال البشرية في ظل مباشرته لرسالته . ولذا كانت رسالته أشبه برسالات لرسل عديدين) إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ؟ . إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون (وكان نوح واحداً من بينهم . وكانت دعوته هي أن يتجنبوا الشرك والوثنية المادية ، ويعودوا إلى الروحية الانسانية والايمان بالله

---

(١) هود : ٤٤ .

(٢) العنكبوت : ١٤ .

وحده . . كانت رسالته أن تحول مجتمعهم : من مجتمع ذى زعامة مادية وتوجيه وثنى . . إلى مجتمع إنسانى تسود فيه الروابط الانسانية والقيم الإنسانية .

ونوح فى دعوته كان مخلصاً لقومه . وأمينا فى رسالته) . فاتقوا الله وأطيعون (وطلب إليهم أن يكونوا فى طاعة الله وفق صراط هدايته السوى ، وأن يرعوا هذا الصراط فى السلوك والمعاملة) . وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجرى إلا على رب العالمين (وهو فى دعوته لايهدف إلى سيادة فى قومه ، ولا إلى أجر من أحد على ما يدعو إليه . فأجره على الله وحده فى دنياه وآخرته . وإذ ينفى نوح : أن يطلب شيئاً مادياً بدعوته .. يريد أن يزيل كل عقبة فى طريقها ، وبالأخص من وجهة نظر الزعماء الماديين فى المجتمع .. كما يريد ألا يجعل الجزاء المادى هدفاً فى الحياة لكل عمل يأتى به الانسان لصالح المجتمع وصالح الانسانية) . فاتقوا الله وأطيعون (وكرر دعوته بتجنب الوثنية المادية والمعاصى ، وبرعاية حرمات الله ، والبقاء فى طاعته . لأن الوثنية المادية هى العقبة الكبرى فى طريق الهداية الإلهية . فإذا تغلبت الدعوة عليها كان الطريق إلى الهداية عندئذ مفتوحاً وممهداً) .

* قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾

ومع أن نوحاً كرر الدعوة فى قومه . إلى تجنب الوثنية المادية . . فإن تكراره إياها لم يكن له صدى فى نفوسهم . إلا أن بقوا على كفرهم ومعارضتهم ، متعللين بتلك العلة المألوفة والشائعة ؛ وهى كيف يتسنى لكبراء فى المجتمع أن يؤمنوا برسالة سارع إلى الايمان بها من قبل : الضعفاء ومن

لاجاه لهم فى المجتمع ؟ . إذ إسراع هؤلاء الضعفاء إلى قبول الرسالة لايقدم دليلا — فى نظر المستكبرين فى المجتمع — على قيمة جوهرية لتلك الرسالة ؛ ثم من جهة ثانية سيسويهم هم بمتبوعيهم فى الوضع الاجتماعى لو قبلواهم الإيمان بها ، وقد كانوا سادة عليهم فى المجتمع القائم) .

﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

ولكن جواب نوح على تعللهم بتلك العلة كان أولا : أنه لايعلم شيئا عما كانوا يعملونه : « قال : وما علمى بما كانوا يعملون (وكانت تقاس الناس فى تلك المجتمعات بما يؤدونه من نوع العمل فى المجتمع . وكان عمل الأفراد يقسم إلى عمل شريف أو إلى عمل وضيع .. أى إلى عمل ينبيء عن رياسة وشرف فى القوم .. أو آخر يشير إلى خدمة أو تبعية فيهم . ولم يكن المقياس الذى يميز الأفراد بعضهم عن بعض هو مقياس الأمانة فى أداء الواجب . . ومقياس الإنسانية فى جلب المنفعة ودفع الضرر فى سبيل المصلحة العامة ، مهما كان نوع العمل ، لأن المجتمع المادى تسوده عاده روح الطبقية كظاهرة من ظواهره ، وليست الروح الانسانية . .

تسوده روح : الاستكبار من جانب ، والاستضعاف من جانب آخر ..

روح الحكام والمحكومين . .

روح الأسياد والأتباع . .

روح أصحاب النفوذ والمستقبلين لهذا النفوذ) . إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون (وكان جوابه ثانيا : أن حساب هؤلاء الذين دخلوا

في الايمان ممن يسمون : أراذل ، أو وضعاء وأخساء ، على مايباشرونه من عمل .. يرجع إلى الله وحده . وهذا أمر يعرفه كل من له إدراك فى هذا الوجود) . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين (وثالثا : أن وظيفة الرسول تقف عند حد الرسالة والإنذار بها . ولاتتجاوز ذلك إلى قبول الإيمان بالرسالة من بعض ، ورفض قبول هذا الإيمان من البعض الآخر . ولذا : ليست من صلاحيات الرسول أن يطرد بعض المؤمنين ، بحجة : أن عملهم خسيس أو وضيع ، ويقبل البعض الآخر منهم ، بدعوى أنهم من الكبراء والزعماء) .

قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

ولم يكن رد قوم نوح على حججه إلا أن أعلنوا تهديدهم له بالموت رجما . وتلك سنة الزعامة فى المجتمع المادى ، لاتعرف منطقا ولاإقناعا . إنما تعرف إسكاتا للصوت ، ووقفا للحجة بطريق التهديد والتعذيب . قالوا : لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين (وأرادوا بذلك أن يسكتوه إلى الأبد . ولكنه فزع إلى ربه) . قال : رب إن قومى كذبون فافتح بينى وبينهم فتحا ، ونجني ومن معى من المؤمنين (واستغاث به بعد أن كذبه قومه ، فيفصل بينه وبينهم فى الأمر وينجيه ومن معه من المؤمنين) : فأنجيناه ومن معه فى الفلك

المشحون ، ثم أغرقنا بعد الباقين (وكان فصل الله بينه وبينهم .: أن أنجاه ومن معه فى سفينته التى عرفت باسمه إلى جبل الجودى فى شمال العراق وشرق تركيا ، وأغرق الباقين ممن ظلوا على كفرهم وتكذيبهم) :

وفيما تقصه قصة نوح هنا فى هذه السورة ــ وفى سور أخرى ــ من نجاته ومن معه من المؤمنين على السفينة ، وغرق أعدائه من الكافرين بالطوفان . . دليل مادى ومعجزة مشاهدة على صدقه فى رسالته :: « إن فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين (ومع مادية الدليل ومحسوسية المعجزة فإن الكثرة من قومه بقيت على الكفر . وهذا يشير .: إلى أن نوع الدليل على صدق رسالة الرسول ليس هو السبب فى إقناع من يؤمن ، ورفض من يكفر . وإنما السبب هو فى مدى تبعية من يؤمن ومن يكفر :· للوثنية المادية ووقوعه تحت تأثير الاتجاه المادى فى التوجيه والسلوك . فمن لا يرى حياة للانسان إلا فى الدنيا وحدها ، وينكر لذلك البعث واليوم الآخر . . هو واقع تحت تأثير قوى للاتجاه المادى . وهو ينكر لذلك الإيمـــان برب العالمين . كما لا يحرم ما حرم الله ورسوله : « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » (١)) . وإن ربك لهو العزيز الرحيم (ومع معارضة المعارضين لرسالة الرسول وتحديهم وصدهم عن سبيل الله . . . فإن الله جلت قدرته عزيز لا يغلب أبداً ، وستسود هدايته رغم المعارضة والتحدى لها . . . وهو رحيم بمن يرجع عن كفره إلى الإيمان ، وبمن هو مؤمن فيدفع عنه كل أذى وهوان) .

* * *

---

(١) يونس : ٧ ، ٨ .

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾

وقصة عاد مع هود تقدم شاهدا ماديا آخر على صدق هود بين قومه فى رسالته من رب العالمين . ولكنهم استكبروا وعتوا فى الأرض ، وركنوا إلى قوتهم المادية وحضارتهم فى العمران والزراعة فى تحديهم لرسالته ، واستعجلوا — تحديا منهم — عذاب الله الذى أنذرهم به هود فى دنياهم ، إن هم استمروا على استكبارهم وعتوهم وتحديهم . فتحقق وعد الله لهم بهلاكهم : « **فلما رأوه** (أى السحاب) **عارضا مستقبل أوديتهم قالوا : هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شىء بأمر ربها ، فاصبحوا لايرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزى القوم المجرمين . ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعا ، وأبصاراً ، وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ، ولا أبصارهم ، ولا أفئدتهم من شىء ، إذ كانوا يجحدون بايات الله ، وحاق بهم ما كانو به يستهزئون** » (١) .
فإهلاكهم بالإعصار والعواصف الشديدة كان أمارة على : أن الله أرسل هودا إليهم ، فكذبوه وأصبح تغيير مجتمعهم ضرورة تقتضيها إرادة الله :

---

(١) الأحقاف : ٢٤ — ٢٦

(وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله . واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة ، ألا إن عاداً كفروا ربهم ، ألا ! بعداً لعاد قوم هود)(١) . وإذا كانت هذه الأمارة حلت بقوم هود ... فلم يفد منها المكيون وغيرهم ممن بقوا على كفرهم . رغم تجدد الرسالة الإلهية لهم . فالشواهد المادية الدالة على صدق الرسالات واختيار الرسل إن كان كل شاهد منها فى قوم معين . لكن أثر أى واحد منها وأثرها جميعها كذلك . يجب أن يكون عبرة لكل قوم . ولكل جيل . ولكل مجتمع لاحق . «كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود . ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر . إن أجرى إلا على رب العالمين (ورغم أن هوداً كان واحداً من قومه وليس غريباً عنهم . ولذا فهو أمين ومخلص فى رسالته إليهم لصالح مجتمعهم . ورغم أنه لا يسأل وظيفة فيهم . ولا رياسة عليهم . ولا رزقا منهم على ما ينصحهم به ... رغم هذا وذاك : فقد كذبوه فى رسالته وأنكروا عليه : أن يدعوهم إلى تقوى الله واتقاء الشرك والوثنية . وتجنب الطغيان اعتماداً على القوة المادية) . أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟. وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون (ومظهر قوتهم المادية : أنهم يشيدون القصور فوق الربى والمرتفعات فتبدو كأنها أعلام للطريق . ويقيمون السدود للمياه فى الوهاد والمنخفضات . تنظيماً لسقى الأراضى والأنعام. وإذا استولوا على شىء استولوا عليه وهم أقوياء بأجسامهم وبأعدادهم) . فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون (ومنطق هذه القوة المادية يوجب عليهم الإيمان بالله وطاعته »

---

(١) هود: ٥٩ ، ٦٠ .

وتجنب عصيانه . وليس العكس من الكفر والمعارضة والتحدى لرسالته ولرسوله . وبالإضافة إلى هذه القوة المادية التى منحت لعاد من الله... فإن هناك نعماً أخرى منه . توجب عليهم الطاعة وعدم العصيان . وهى نعم : الثروة الحيوانية ، والزراعية ، وعصبية الأولاد ومصادر مياه السقى والشرب ، وتكون جميعها مصادر الرخاء فى عيشتهم ، واليسر فى أحوالهم .

وتضافر القوة المادية مع موارد اليسر والرخاء فى مجتمع : هو منتهى ما يؤمل فيه مجتمع بشرى .

والمحافظة على البقاء على هذا الوضع تتطلب من زعمائه قبل الضعفاء فيه أن يكون سلوكهم سلوكا إنسانيا . لاعتو ، ولا ظلم فيه : فى معاملة بعضهم بعضاً ، وفى علاقة بعضهم ببعض .

ومصدر الهداية فى السلوك الانسانى يتركز فى رسالة الرسول إليهم .

والايمان به وبرسالته ضرورة فى الأخذ بتلك الهداية . ومعنى ذلك : أن هذه النعم — من قوة ورخاء — التى لعاد تفرض عليهم الايمان بالله واتباع هود فى رسالته منه . ولكن الغرور بالقوة المادية وبمصادر اليسر والرخاء فى الحياة يجر عادة إلى الاعتزاز بها وحدها ، والركون إليها دون ما عداها . وهذا ينتهى إلى عدم الإيمان بالله عندما يدعو إليه داع ، فضلاً عن أن يدعو إليه رسول من الرسل . وذلك ما كان من أمر عاد فى مواجهة رسالة هود . « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا : أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون »(١) . وعندئذ يكون المصير الحتمى لمجتمع القوة

---

(١) فصلت : ١٥ .

الرخاء وهو مصير التغيير لزعمائه وقياداته والمستكبرين فيه : « **فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا . ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون** »(١) إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (وهذا اليوم الذى وقع فيه العذاب على عاد هو ما خشيه هود ، بسبب رفضهم للايمان برسالته) .

قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

ومع إنذاره إياهم بالعذاب فى الدنيا عقابا لهم على رفضهم الايمان برسالته فإنهم لم يعبأوا بهذا الانذار ، وعبروا عن عدم مبالاتهم به بأنه يستوى عندهم : أن ينصحهم أو لا ينصحهم . ونصحه إذن عديم الجدوى ، وأولى ألا يباشره . إذ ما يتبعونه من عبادة الأوثان ومن مساوقتهم للاتجاه المادى فى الحياة : تقليد ورثوه عن آبائهم وأجدادهم ، جيلا بعد جيل . وكذلك ما يذكره لهم فى رسالتة : من بعث وحياة أخروية وجزاء ، فيها من نعيم وعقاب .. أمر لا يقع فى نظرهم . وحياة الانسان إذن هى حياة واحدة .. هى تلك الحياة التى يعيشها فى الدنيا وحدها . ثم أيضا ليس — فى نظرهم — هناك عذاب يقع فى هذه الحياة ، ولا تحول للمجتمع من وضع لوضع آخر لأن الاستمتاع بالمتع المادية ، ومنها الاستمتاع بالقوة وبالرخاء هو أمر طبيعى يتصل بطبيعة هذه الحياة المادية . وهؤلاء لا يفرقون بين الاستمتاع بمتع

---

(١) فصلت : ١٦ .

الحياة المادية ، وبين الغرور بتلك المتع من قوة ، وجاه ، ومال ، وأولاد وعصبية .

ورسالة الله جاءت تمنع هذا الغرور ، أو لتحول دون أن يصير الاستمتاع فتنة وطغيانا) . فكذبوه فأهلكناهم ، إن فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين (وانتهى أمر عاد بتكذيب هود . ثم بإهلاكهم وتغيير مجتمعهم . وكان ذلك آية مادية من عند الله . ومع مشاهدة هذه الآية — وأمثالها — فإن أكثر الناس فى المجتمعات المادية يرفضون الإيمان بالله . لأنهم مخدرون بفتن هذه الحياة المادية ، وواقعون تحت تأثيرها) . وإن ربك لهو العزيز الرحيم (ومع كفر أكثر قوم عاد برسالة هود فإن ذلك لا يؤثر فى اتجاه الرسالة الإلهية وفى نجاحها ، ولو بعد حين . فالله عزيز لا يغلب أبداً ، وهو الناصر لرسالة رسله . ومع أنه لا يغلب فهو رحيم بمن يرجع عن كفره إلى الإيمان) .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَـٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾

وهذه قصة ثمود أو أصحاب الحجر فى شمال المدينة ، وعلى الطريق إلى سوريا ، مع صالح وما انتهى إليه أمر رسالته إليهم ، بأن أخذتهم الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ، وبأن نجاه هو ومن آمن

معه . بعد أن ساق إليهم الأمارة المادية من عند رب العالمين ، يختبر بها إيمانهم وكفرهم : « ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب »(١) . وقد كانت رسالة صالح إلى قومه : أن دعاهم إلى عبادة الله وحده والابتعاد عن الشرك والوثنية المادية : « وإلى ثمود أخاهم صالحا : قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره . هو أنشأكم من الأرض . واستعمركم فيها . فاستغفروه . ثم توبوا إليه . إن ربى قريب مجيب » (٢) . وطلب إليهم أن يستغفروا الله على ما فرط منهم وما باشروه من ضروب التفرقة بين المستكبرين والمستضعفين فى مجتمعهم ، فى رعى الأنعام والسقى من مياه الآبار ، فاحتجز الكبراء أو الزعماء فيهم : المراعى وآبار المياه لأنعامهم وحدهم ، وحرموا منها أنعام الضعفاء وأصحاب القلة فى الشأن . وكانت هذه التفرقة مما تمليها الأنانية المادية . فجاءت آية صالح وهى الناقة للتعرف على مدى إيمانهم بالله . أو مدى كفرهم به . فإن هم تركوا ناقته — وهو واحد من غير الزعماء والكبراء — ترعى فى أرض الله وتشرب مما ليس ملكا لأحد . بل هو شائع . كما ترعى أنعام الكبراء وتشرب فى هذه الأرض المباحة والمياه الشائعة كانوا قد آمنوا بالله ، وإلا بقوا على كفرهم وعلى تسلطهم المادى . إذ الإيمان بالله يستلزم العدل بين الناس فى الحقوق والواجبات . والاعتراف بالآخرين فى الوجود والحياة العامة . ولكنهم بدل أن يبيحوا لناقة صالح ما يبيحونه لأنفسهم .. عقروها ، أمارة على طغيانهم وتحدوه فى ذلك . وكان هذا منهم رفضا لرسالته . وهى رسالة العدل الإلهى فى المجتمع البشرى .

---

(١) هود : ٦٤ .

(٢) هود : ٦١ .

رسالة المساواة فى فرص الحياة ..

رسالة القضاء على الاحتكار والتفرقة الطبقية : « فعقروها ، فقال : تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب »(١). وقد تحقق وعد الله بزوال مجتمع ثمود ، وإحلال مجتمع بشرى آخر محله يسير علىهداية الله ولا يدع زعماؤه تصرفاتهم فيه لأهوائهم وشهواتهم : « كذبت ثمود المرسلين . إذ قال لهم أخوهم صالح : ألا تتقون؟ إنىلكمرسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر . إن أجرى إلا على رب العالمين (وعلى نحو أى رسول يأتى إلى قومه من قبل الله تعالى : فى كونه واحداً منهم . . وفى كونه أمينا ومخلصا فى دعوته .. وفى كونه مترفعا عن الرياسة والزعامة فى قومه ، وعنجمع المال ،والتعلقبالمظاهر المادية من جاه وعصبية. كان صالح مع ثمود . وكذلك لم تكن دعوته فى قومه سوى : رفضالوثنية المادية وآثارها فى المجتمع البشرى : من التفرقة بين أقدار الناس ومنازلهم ، وحقوقهم وواجباتهم فى الحياة العامة ، والمطالبة بالمساواة بين الأفراد جميعا فى الاعتبار البشرى وفى الحقوق الأساسية التى تبقى على علاقات المودة ، والترابط والتماسك بينهم جميعا .

ورفض الوثنية المادية ، وتحقيق المساواة فى الاعتبار البشرى بين الناس جميعا يتجلى فى الإيمان بالله وحده ، أو طريقه : الإيمان بالله وحده،والطاعة لهدايته التىجاء بها رسوله) . أتتركون فيما هاهنا آمنين فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين : فاتقوا الله وأطيعون (ثم ذكرهم صالح بأنهم يعيشون الآن فى الأمكنة التى يعيشونفيها:

---

(١) هود : ٦٥ .

فى أمن .. وفى رخاء .. وفى وقاية من الكوارث الطبيعية : إذ أن لهم الحدائق ، ومصادر المياه للشرب والسقى ، ولهم محاصيل الزروع وثمار النخل ، ولهم البيوت والمساكن منحوتة فى الجبال فى حذق ومهارة . وبقاؤهم على استمرار هذا الوضع : يطلب منهم أن يتجنبوا ما يخالف رسالة الله ، وذلك بطاعته فيما جاء به إليهم) . ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون (كما يطلب منهم : رفض الطاعة للمستكبرين والزعماء فيهم . لأنهم يتجاوزون حدود الاعتدال فيما يعتقدون ، وفيما يصنعون .. يتجاوزون حدود الاعتدال فيما يعتقدون فيؤمنون بالشرك وبالوثنية المادية ، ويحكمون التقليد والعادة ، وينحون العقل فى استخدام الكون وظواهره للتدليل على وحدة الله رب العالمين فى ألوهيته .. ويتجاوزون أيضا حدود الاعتداد فيما يصنعون فيحتكرون لأنفسهم المراعى وآبار المياه ، وهى للناس جميعا . أى يحتكرون لأنفسهم مصادر الثروة القومية ويحرمون منها ضعفاء الناس . وبذلك يفسدون العلاقات فيما بينهم وبين الآخرين فى مجتمعهم . وهم المستضعفون التابعون لهم . ومن تؤدى تصرفاته إلى الفساد ، يستحيل عليه أن يتجه إلى الإصلاح ، فضلا عن أن يسهم فيه . وإذن أمران رئيسيان وضروريان يجب على قوم ثمود اتباعهما ، إذا أرادوا الحفاظ على ما لهم من وضع اقتصادى ومنزلة اجتماعية :

أولا -- الإيمان بوحدة الألوهية لرب العالمين ، والعودة بذلك للروحية الإنسانية .

ثانيا -- الخروج على طاعة المفسدين من الزعماء والكبراء فى مجتمعهم بتنحيتهم عن الزعامة والرياسة فيهم ، والتخلص من تصرفاتهم السيئة التى سيؤدى استمرارها حتما إلى تغيير المجتمع بعد ماتنتابه الأحداث التى ستشقيه ، ثم تدفع إلى انهياره .

قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦)

ولكن رفض زعماء ثمود الأمرين معا : الإيمان بالله وحده .. وعدم الطاعة للمفسدين فيهم الذين يقودونهم إلى الهاوية : « قالوا . إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا ، فأت بآية إن كنت من الصادقين (واتهموه فى دعوته إياهم إلى هذين الأمرين : بأنه مسحر ، أى معلل وصاحب حاجة فى وجوده ، فهو بشر مثلهم . ولا يرقى ببشريته — لذلك — إلى مستوى نقد الأوضاع فى مجتمعهم ، ودعوته إلى إصلاح هذه الأوضاع بما أشار به عليهم . إنه واحد من الضعفاء فيهم . فكيف به يرتفع إلى نقد تصرفات الزعماء والكبراء فى المجتمع ويشير بعدم طاعة البعض منهم ، كما يشير إلى التحول كلية عما كان عليه الآباء والأجداد .. إلى الوقوف بالعبادة عند الله وحده . ولذا طالبوه — إذا كان ادعاؤه بأنه رسول من قبل رب العالمين صحيحا — بأن يأتى لهم بأمارة مادية تدل على صدقه ويكون وجودها مقنعا لهم فى اتباعه) . قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم (فكانت الناقة . وهى ناقة عادية . وكونها آية من آيات الله . فى أن طلب صالح من قومه : أن تكون لها حصة فى الأكل فى المراعى . والشرب من الآبار . كحصص الأنعام التى يملكها الكبراء والزعماء . إذ لو تم سماح هؤلاء الكبراء والزعماء لناقة صالح فى أن تأخذ نصيبها من الرعى والسقى . لكان ذلك أمارة منهم على رغبتهم فى ترك الضعفاء فيهم : أن يأخذوا لأنعامهم حصصا متساوية فى

المراعى والمياه .. أى لكان أمارة منهم على أن يأخذ العدل الإلهى طريقه فى المجتمع . وبذلك يبتعد الانحراف وطغيان المادية القائم على الأنانية . تلك الأنانية التى تتملك الزعماء حتى الآن فى تصرفاتهم بسبب اعتقادهم فى الوثنية المادية ، وإنكار البعث والحياة الآخرة ، والوقوف بالحياة الإنسانية عند الدنيا وحدها . وإذا لم يسمح هؤلاء الزعماء والكبراء فى مجتمع ثمود لناقة صالح بأن ترعى كما ترعى أنعامهم وتستقى من آبار المياه العامة كما تستقى إبلهم ومواشيهم ، أو أساءوا إليها : كان ذلك منهم دليلا على بقائهم على وثنيتهم المادية ، وعلى عدم رغبتهم فى الإيمان بالعدل الإلهى فى المجتمع البشرى الذى يقوم على المساواة فى الاعتبار البشرى وفى الحقوق والواجبات ... دون التفاضل فى الأرزاق — فى الحياة الإنسانية المشتركة . وبذلك يترقبون اليوم العظيم لعذابهم) » .

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾

وعز على نفوس الزعماء والمستكبرين فى ثمود أن يتنازلوا عما حققوه لأنفسهم من امتياز أو احتكار فى المراعى والآبار العامة . إذ ذلك شأن المادى : يعز عليه أن يخرج عن بعض ما فى يده . ولذلك يعد أداء الزكاة فى الإسلام تعبيراً عمليا عن بعد المزكى عن التأثر بالمادية فى حياته . وتحت التأثر بموجة من عصبية العنجهية ذبحوا ناقة صالح وتخلصوا منها ، وبذلك أعلنوا عن كفرهم برسالته . وعند ما أفاقوا من أثر هذه الموجة ، ورجعوا إلى التفكير فيما أنذرهم به صالح ، لو مسوها بسوء .. أعلنوا ندمهم ، لأنهم يخشون العذاب الذى وعدوا به . وهذا أيضا شأن المادى : يعلو مرة ، ويذل

أخرى : يعلو عندما يغتر بقوته ، ويصغر عندما يحس بخروجها من يده : « فعقروها ، فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب . (وهكذا : جمع كبراء ثمود وزعماؤها بين العلو والطغيان والاستكبار عندما شرعوا في ذبح ناقة صالح ،وبين الأسف والمذلة والندم عندما أصبح ذبحها حقيقة واقعة) فأخذهم العذاب (ولا مفر آنئذ : من أن يحقق الله وعده بعذابهم أن لم يؤمنوا برسالة رسولهم : « فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ومن خزى يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها، ألا : إن ثمود كفروا ربهم . ألا : بعدا لثمود »(١) « إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (وفى قصة صالح مع ثمود آية من آيات الله فى تغيير المجتمعات ، والإطاحة بأصحاب الزعامة المادية فيها . لأن أكثرهم لم يؤمنوا بالله ، ولا الروحية الإنسانية التى تحققها الهداية الإلهية . ولو أن الزعماء المكيين كانوا يحكمون العقل ، ويسترشدون بأحداث التاريخ ، وقوانين المجتمعات فى سقوطها وقيام مجتمعات أخرى بديلة عنها، وأسباب السقوط والقيام . . لرأوا فى هذه القصة — وفى القصص الأخرى لمجتمعات الرسل قبلها — دليلا يدعوهم إلى الإيمان برسالة الرسول محمد عليه السلام ، واتباع الهداية الإلهية فى كتاب الله : القرآن) . وإن ربك لهو العزيز الرحيم (ومع إعراض الكثرة من أصحاب المجتمعات المادية عن الإيمان بالله وطاعة الرسول الذى جاء بالدعوة فيها . .فإن إرادة الله جل شأنه فى التغيير للمجتمعات إرادة نافذة. لأنه عزيز الجانب فلا يرقى إلى عزته وقدرته أحد . وفى الوقت الذى له سبحانه العزة والمنعة فإنه رحيم بمن يرجع إليه ويؤمن بوحدته فى الألوهية .لأنه جلت قدرته لا يريد من الناس سوى أن يكون سلوكهم فى الحياة سلوكا سويا) .

---

(١) هود : ٦٦ — ٦٨

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ
رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ
مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾

وهذه قصة لوط ، تنتهى بأمارة مادية أخرى تدل على صدقه فى رسالته من جانب ، وعلى عدم تأثيرها من جانب آخر فى إقناع قومه برسالته . لوقوعهم تحت تأثير الاتجاه المادى ، وانحرافهم فى الاستمتاع بمتع الحياة الدنيا . وهناك قدر مشترك بين الرسالات التى ذكرها القرآن حتى الآن فى هذه السورة ، واقترنت بأمارات مادية للاقناع بها . وهو الدعوة إلى التوحيد فى الألوهية ، وترك الوثنية المادية ، واتقاء انحرافاتها .

وبجانب هذا القدر المشترك فى الرسالة : هناك جانب آخر تنفرد به كل رسالة فى التركيز عليه : فهناك فى قصة فرعون : تركز فيها رسالة موسى على تخليص بنى إسرائيل من حكمه وتحريرهم من ظلم التفرقة فى المعاملة ، وفى الاعتبار بينهم وبين المواطنين معهم فى مصر .

وهناك قصة عاد : تركز فيها رسالة هود على كسر حـــدة الطغيان بالقوة المادية والحضارة العمرانية ، وأثر هذا الطغيان فى معاملة الزعماء لأفراد المجتمع .

وهناك قصة ثمود : تركز فيها رسالة صالح على طلب المساواة وتحقيق العدل الإلهى فى حق الحياة ، والعيش فيها بسلام ، وتوزيع الثروة القومية —

الممثلة آنئذ فى المراعى وآبار المياه – بين الأفراد جميعا ، لا فرق بين زعيم ومن تجب عليه الطاعة له .

وهذه قصة لوط – بعد أن تدعو إلى التوحيد فى الألوهية – تركز على إبعاد الانحراف السائد فى قومه ، وهو انحراف الشذوذ الجنسى بين الرجال فيهم . لما يترتب عليه من ضياع المروءة والشهامة بين ذكورهم . ولما يترتب عليه كذلك من انقطاع النسل البشرى ، وقطع السبيل على الاستمرار فى الحياة الطبيعية فى المجتمع ، وهى حياة التزاوج بين الذكور والإناث . « أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر »(١) . وجانب الشذوذ الجنسى فى العلاقات بين الرجال ، بعضهم ببعض أو بين النساء بعضهن مع بعض .. نتيجة للتأثر بالحضارة المادية والوقوع تحت إغراء الاستمتاع بالمتع المادية وحدها وإن برزت اليوم فى المجتمعات الحضارية المعاصرة ظاهرة إباحة الشذوذ الجنسى للرجال ، وللنساء .. فتلك أمارة على إفلاس تلك الحضارة الصناعية فى أن تدفع معها حضارة إنسانية مساوقة .

هذا من جانب ؛

ومن جانب آخر : هى دليل على انحدار هذه المجتمعات إلى الهاوية ، ومن ثم فيترقب لها عذاب الله بتغيير زعامات هذه المجتمعات ، كما غير زعامة مجتمع لوط بمطر غير عادى ، أهلك حرثهم ، ونسلهم ، وأسقط مساكنهم ، وأصبح مجتمعهم آية لكل من يفكر فى أسباب الأحداث ونتائجها :

---

(١) العنكبوت : ٢٩ .

« ولما أن جاءت رسلنا (وهم الملائكة) لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا : لاتخف ، ولاتحزن ، إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء ، بما كانوا يفسقون . ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون »(١) .
وما يترقب لهذه المجتمعات المعاصرة من تغيير فيها هو الإرادة الالهية التى تعبر عنها قوانين المجتمعات البشرية التى جاء بها كتاب الله ، كآخر رسالة للناس جميعا إلى يوم البعث .

ومن هذه القوانين : أن شيوع الفسق بين المترفين فى المجتمع مقدمة تدعو ضرورة وحتما إلى تغيير المجتمع كلية . وتغييره هو تغيير قيادته وزعامته . وبالتالى : تغيير منهج الحياة والتوجيه فيه : « وإذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها . فحق عليها القول . فدمرناها تدميرا »(٢) . وهذا بالاضافة إلى عذاب الآخرة لهؤلاء المتولين أمر هذه المجتمعات : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . فى سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم . إنهم كانوا قبل ذلك مترفين(٣) » .
وليس معنى ترف المجتمع أن يكون كل الأفراد فيه مترفين . وإنما القصد هو ترف المجموعة أو العصابة من الأولياء والزعماء الذين ينفذون إلى قيادة المجتمع بسبب أو بآخر ، ويغريهم الترف فيسلكون سبيل الفسق والانحراف.

« كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط : ألا تتقون ؟ . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون

---

(١) العنكبوت : ٣٣ — ٣٥ (٢) الاسراء : ١٦ .
(٣) الواقعة : ٤١ — ٤٥ .

ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ، بل أنتم قوم عادون (أى إن لوطا كلف برسالة من ربه إلى قومه وهى : نهيهم عن منكر منتشر بينهم وهو منكر اللواط ، أو الشذوذ الجنسى بين الرجال .. بجانب نهيهم عن الوثنية المادية. وأبرز القرآن جانب النهى عن الشذوذ الجنسى فى رسالة لوط إلى قومه، لأنه جانب خطر على المجتمع يؤدى إلى فنائه ، بعد انحلاله .

ولوط فى رسالته هذه : لا يتهم بأنه أجنبى عن مجتمعهم إذا قام بنقد سلوكهم ، ودعوتهم إلى الإصلاح ، لأنه واحد منهم . ولا يتهم بخداعهم ، لأنه عرف بالأمانة والإخلاص بينهم . ولا يتهم بغرض الرياسة والزعامة ، ولا بغرض التكسب وجمع المال من دعوته ، لأن أجره فى ذلك على الله وحده .. هو وحده الذى يجزيه ، وهو وحده الذى يرزقه ويأويه. وماطلبه منهم فى السلوك — فى دعوته — هو أن يغيروا عادتهم فى الشذوذ الجنسى ويعودوا إلى العلاقة الطبيعية بينهم وبين النساء . إذ أنهم معتدون بما يباشرونه من شذوذ على حقوق النساء ، وعلى الرجولة والمروءة فيهم . ومايدعوهم إليه إن غير من وضعهم الاجتماعى فهو إلى أحسن . وليس إلى أقبح . لا ينتزع من زعيم فيهم . . زعامته ، ولا من صاحب مال .. ماله، ولا من صاحب عصبية . . عصبيته، إنهم جميعا مؤمنون على أوضاعهم الاجتماعية . وفقط يؤمن الزعماء فيهم من عداهم من المستضعفين.. على المساواة فى الاعتبار البشرى . وذلك بتركهم الوثنية المادية وعودتهم إلى الايمان بالله وحده . كما يؤمنون النساء فيهم على إعادة الحق الطبيعى لهم فى معاشرة الرجال لهم . ولكنهم كذبوا لوطا وهددوه بنفيه خارج مجتمعهم ، إن هو استمر على نقده ودعوته لإصلاحهم) . قالوا . لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين قال إنى لعملكم من القالين (وإزاء تهديدهم إياه . وهم قوم ماديون

لا يرعون حقا لأحد فى الحياة سواهم ، ولا يحسون بضمير بين جوانبهم يراقب تصرفاتهم مراقبة ذاتية ، ولا يحترمون عهداً بينهم وبين غيرهم — أعلن فى وضوح : أنه يبغض عملهم ، وينكر عليهم عادتهم فى الشذوذ الجنسى . وبذلك سجل عليهم آخر ما يستطيع قوله فى مواجهتهم) : رب نجنى وأهلى مما يعملون (كما اتجه إلى رب العالمين تضرعا وخشية ، ودعاه : أن ينجيه هو وأهلة من تدبير هؤلاء وما عساهم يباشرونه من عمل ضده).

فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾

والله الذى أرسله قد تكفل به وإنقاذه من إضرار قومه به : « فنجيناه وأهله أجمين ، إلاعجوزاً فى الغابرين . ثم دمرنا الآخرين.وأمطرنا عليهم مطراً ، فساء مطر المنذرين (وتدخلت إرادتهسبحانه فأنقذتهوأنقذت أهله معه فأرسلت إليه الملائكة لتدعوه إلى الرحيل بالليل : « قالوا يالوط . إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ،فأسر بأهلك بقطع من الليل ،ولا يلتفت منكم أحد ، إلا امرأتك . إنه مصيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب ؟ »(١) .. واستقر به المقام فى أرض كنعان — أوالشام — مع إبراهيم عليهالسلام وقد كانابن أخيه : « ونجيناه ولوطا: إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين (٢)». ولم تسلم امرأته من عقاب الله مع قومه. لأنها تخلفت عن أن تتقدم إلى الإيمان بما جاء به لوط . فهى فى الغابرين : أى فى

(١) هود : ٨١ .

(٢) الأنبياء : ٧١ .

الرجعيين الذين آثروا البقاء فيما هم فيه. على أن يأخذوا بما أتى به الحاضر لقومهم ، وهو رسالة لوط. والوصف بالرجعية ترمى به الرسالة الإلهية كل متخلف عن الإيمان بها ، الذى بقى فى وثنيته المادية . ومن سخرية القدر أن ترمى الرسالة الالهية فى حاضرنا من المادية . . وهى الماركسية الإلحادية -- بالرجعية . وكأنها تريد أن تنتقم من الدين بهذا الوصف عندما تشعر بقوة مادية تساندها فى عهد من العهود . وقد عاقب الله قوم لوط فى قريتهم ، وهى : المؤتفكة : « والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى »(١) -- وامرأته بينهم -- بالمطر الشديد الذى أتى على مجتمعهم ، فأصبح عبرة لمن يعتبر .وقد وقى الله بما أنذرهم به لوط من عذابهم فى الدنيا ، إن لم يستجيبوا لدعوته).

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ ﴾

وقد كان تدمير مجتمع لوط تدميراً شاملا فى سهل البحر الميت... أو بحر لوط -- بين ثمود شرقا وأهل مدين غربا ، ونجاته وأهله من هذا التدمير .. أمارة من أمارات الله المادية التى لم تقنع المجتمع المادى فى عهد لاحق لعهد لوط وبالتالى لم تقنع المكيين الماديين ، لأن مجتمعهم صورة مكررة للمجتمعات المادية التى لا ينفع فيها النصح والاعتبار معا : « إن فى ذلك الآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

(وبقى أكثر الناس فى هذه المجتمعات على إلفهم وميلهم للوثنية المادية ، وبعدهم عن الإيمان بالله وحده . ولكن بقاء أكثر الماديين -- وبالأخص زعماء مجتمعاتهم -- على كفرهم والتمسك بماديتهم ، لا يعنى إطلاقا : ضعف

---

(١) النجم : ٥٣ -- ٥٤ .

قدرة الله على مواجهتهم .فالله هو العزيز الذى لا يواجه بقدرة أحد، ولا يغلب من أحد. كما لا يعنى : أن الله لا يغفر لمن يؤمن من هؤلاء الماديين، ويعود إلى هدى الله وحده : فى سلوكه ، واعتقاده ،وتفكيره ، وروابطه، مع الآخرين.

وأنت أيها الرسول عليك صلوات الله ، لا يضيرك إذن كفر المكيين من زعماء الماديين ، سر فى دعوتك فالله معك ، والعذاب فى الدنيا والآخرة حال بمن يكفر به) .

كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

وقصة أصحاب الأيكة — أى أصحاب الشجر الملتف ، وهم إما أصحاب مدين ، أو مجموعة منهم ، أو مجموعة كانت تسكن بجوارهم ، مع شعيب ، تركز على إبعاد الانحراف فى استغلال المال فى المعاملات التجارية فى مجتمع

مدين وما جاورها . وينتهي أمرها أيضا بهلاك هذا المجتمع فى يوم عرف بيوم الظلة . وقد كان هلاكه آية مادية على قدرة الله ، ووفائه بما وعد به شعيبا فى حال رفضهم لرسالته .

ومع ذلك لم يكن لهذه الآية شأن يذكر فى تحويل المجتمعات المادية اللاحقة ... إلى مجتمعات روحية إنسانية ، تسير وفق هداية الله فى رسالته التى يجيء بها أى رسول يرسل . ومن هذه المجتمعات مجتمع المكيين الماديين على عهد الرسول عليه السلام محمد بن عبد الله : « كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب : ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين (فشعيب فى رسالته : أكد لهم أنه أمين فى رسالته ... وأنه لا ينتظر من أحد أجراً على ما يدعوهم إليه : من اتقاء الله ، وطاعته هو فى رسالته التى جاء بها إليهم . وهى تدعوهم إلى إحقاق حقوق الآخرين فى المعاملات المالية بالوفاء فى كيل ما يكال ، وبالوزن بالعدل فيما يوزن ، ومن تجنب بخس الناس أشياءهم على العموم عند المعاملات المالية ، وتجنب العبث والفساد فى المجتمع ، سواء بالظلم فى هذه المعاملات ، أو بالانحراف فى إنفاق المال . وإذا كانت هناك منفعة تعود على أحد من هذه الرسالة فلا تعود على شعيب نفسه ، وإنما تعود على المجتمع الذى أرسل إليه . ويجب أن يتذكر هؤلاء المنحرفون فى المعاملات المالية فى مجتمع شعيب : أن الله الذى أرسل شعيبا إليهم ... هو ذاته الذى خلقهم . وخلق أسلافهم ، والأوائل من بنى الإنسان . وهو قادر على أن يخلق مثلهم فى كل وقت) . قالوا : إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا ، وإن نظنك لمن

الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء ، إن كنت من الصادقين (وكان جوابهم على دعوة شعيب أمرين ::

الأمر الأول ... ادعاء عدم صلاحيته للرسالة ، بسبب أنه من المعللين بالطعام والشراب ، فهو ذو شهوة وحاجة ، وبسبب أنه كذلك من البشر ، وليس من الملائكة . فهو مثلهم وليس متميزاً عنهم . ولهذا فهو كاذب فيما يقوله لهم وفيما يطلبه من اتقاء الله وعدم بخس الناس أشياءهم عند المعاملات المالية ، وبالأخص فيا يكال أو يوزن،لأنه يتعلق بقوتهم وبضرورات حياتهم وهذا ادعاء يكرره الزعماء فى المجتمعات المادية فى مواجهة الرسل إليهم للتقليل من شأنهم أمام المستضعفين التابعين لهم فى هذه المجتمعات .

الأمر الثانى ... تحديه بأن ينفذ ما وعد به من العذاب . إن هم استمروا على معارضته والصد عن سبيل الله ، ان كان صادقا فيا يدعوهم إليه، وأنه يمثل رسالة من الله إليهم) . قال : ربى أعلم بما تعملون . فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم (ولم يملك شعيب أمام انتقاصهم إياه ، وتحديه بطلب تنفيذ العقاب لهم ... سوى أن يتجه إلى الله. وقد اتجه إليه بأن سلم له الأمر ، دون تفصيل لتطوراته ، فهو أعلم بعملهم وبمواقفهم . وعندئذ استجاب الله لدعائه إياه ، ووقع عليهم العذاب يوم الظلة وهو يوم ظللهم فيه السحاب فاستبشروا به خيراً ، فإذا به يتحول إلى مطر غزير يأتى عليهم وعلى مساكنهم . ووقع عليهم هذا العذاب بسبب أنهم كذبوا برسالة شعيب ، وأصروا على بقائهم على الظلم لغيرهم فى المعاملات المالية . وهم أقوياء بمالهم . وغيرهم ضعفاء للحاجة إليهم) . إن فى ذلك لآية ،

وما كان أكثرهم مؤمنين (وفى أخذ أصحاب الأيكة بالمطر يوم الظلة أمارة مادية على صدق شعيب فيما أرسل به وفيا وعدهم إياه . ومع ذلك فلا ينتفع فى المجتمعات المادية بها فى قبولهم للايمان بالرسالة التى يأتى بها أى رسول لمجتمعه . بل أكثر الزعماء والمستكبرين فى هذه المجتمعات لم يؤمن بها. وبقى على تحديه إياها وانحرافه فى السلوك عنها) . وإن ربك لهو العزيز الرحيم (ولا يضر الدعوة إلى الإيمان بهداية الله ، ولا يضر الرسول الذى كلف بها ولا الداعى إليها بعده : أن يبقى أكثر الزعماء فى هذه المجتمعات المادية على شراستهم فى الكفر . وفى التحدى لدين الله . فالله ، وهو صاحب الأمر والتدبير لا يقهر ولا يغلب أبداً ، ولا ينهزم بالتالى دينه والمؤمنون به مهما كانوا قلة أو ضعافا فى العدد أو العدة ، فهو العزيز . وهو مع ذلك الرحيم بقبول التوبة من عباده إن أخلصوا فيها وأقبلوا على الإيمان بالله واليوم الآخر ، إقبالهم من قبل على الكفر والتحدى فى سبيله) .

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٩٧)

وبعد أن تنتهى السورة من إجمال هذه القصص السبع ، التى تذكر الأمارات المادية الدالة على صدق الرسل الذين أرسلوا إلى مجتمعات: فرعون بمصر . . ومكة على عهد ابراهيم . . وقوم نوح فيما بين النهرين . . وعاد فى حضرموت . . وثمود فى شمال شبه الجزيرة وجنوب سوريا . . وقوم لوط على البحر الميت . . وأصحاب الأيكة على خليج العقبة ، ومن التعقيب بأنه مع هذة الأمارات المادية : فإن أكثر الزعماء والمستكبرين فى هذة

المجتمعات — وهي مجتمعات ذات اتجاه وثني مادي — بقي على كفره وتحديه.:
تسوق هذه السورة التأكيد من جديد بأن القرآن هو تنزيل رب العالمين على رسوله محمد عليه السلام، بواسطة ملك مطيع هو جبريل. وليس تنزيل الشياطين، كما ادعى الزعماء من مشركي مكة، وقاسوا ما ادعوه على ما كان شائعا فيها من الكهانة مما تتنزل به الشياطين على كهانهم.

وسورة الشعراء تستهدف في الدرجة الأولى: نفي هذا الادعاء، كما تستهدف بعد ذلك: إبطال أنه عليه السلام شاعر.

وتستطرد في ذكر قصص الرسل السبعة السابقة: لتقيم الدليل على كذب المكيين في طلبهم من رسول الله محمد عليه السلام: آية مادية — وراء القرآن — تدل على صدقه في الرسالة، على نحو آيات الرسل السابقين، كي يؤمنوا برسالته. إذ الإيمان برسالة أي رسول لا يتوقف على وجود الأمارة المادية، فقد وجدت ولم يؤمن كثير من الزعماء وأصحاب الشأن في تلك المجتمعات. وإنما يتوقف الإيمان على الاستعداد النفسي لقبول الوضع الجديد في المجتمع الذي تخلقه الرسالة الالهية فيه، وهو وضع المساواة في الاعتبار البشري بين من كانوا كبراء وأتباع لهم فيه بالأمس. ووضع العدل الإلهي الذي يحول دون الطغيان بالقوة المادية.. ويقضي بعدم بخس الناس حقوقهم في الحياة، ووضع العلاقة الطبيعية بين مختلف أنواع الانسان، لا شذوذ فيها ولا انحراف فيها يرديها ويفسدها. وهو وضع شاق على أصحاب المصالح الخاصة في المجتمع، وسهل على التابعين لهم. ولكن أنى لهؤلاء التابعين أن يفلتوا من حصار كبرائهم ونفوذهم؟.

« وإنه لتنزيل رب العالمين (وإنه: أي الكتاب المبين، الذي جاء ذكره في الآية الثانية من هذه السورة في قول الله تعالى: تلك آيات

الكتاب المبين » . « لتنزيل رب العالمين » : أى منزل على سبيل التأكيد والقطع — من رب العالمين ، وهو الله جل شأنه ، وليس من إله آخر من الآلهة التى يدعى إشراكها معه) . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين (أى والذى نزل به من عند الله وأبلغه مباشرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم هو ملك أمين . . هو جبريل عليه السلام ، لينذر به المعارضين والمنكرين ، لأنهم هم مصادر السوء والشر فى البشرية . وقد نزل بلسان عربى فصيح : لا لكنة فيه ، ولا التواء فى فهم كلماته وآياته . والقرآن بذلك لم يسترق سمعه الشياطين الذين يعوذ بهم رجال من الانس ، وهم الكهان ، على نحو ما كان يدعى فى شأن الكهانة : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » (١). والقرآن بذلك أيضا لم يبلغه رجال من الجن كفروا بالله كما كان الحال فى نقل الكهانة إلى الكهان : « وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا » (إذ شأن المؤمنين من الانس والجن أن يوقنوا بالآخرة) . بل بلغه ملك مؤمن مطيع أمين . والقرآن بذلك أيضا بعيد كل البعد أن يساء أو يعمى فهمه على الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، لأنه بلغته ولغة قومه الفصحى. فالقرآن صدق فى تصويره الارادة الالهية . والقرآن صدق فى إحكام تبليغه للرسول . والقرآن صدق فى كلماته . قد جاء من عالم الغيب وحده وهو رب العالمين ، الذى يحكم إرسال ما يبلغه منه إلى الرسول ، فلا يطلع عليه أحد ، حتى يأخذ طريقه إلى الناس) :

« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ،

---

(١) الجن : ٦ .

وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا(١) » . وإنه لفي زبر الأولين (وفوق هذه الضمانات في صدق القرآن في كونه من عند الله ، وفي تبليغه إلى الرسول ، وفي كون الرسول على بينة منه لأنه بلغته الفصحى . . فإن هناك تأكيداً آخر في كونه من عند الله . وهو أن ما جاء به مسجل في الكتب السماوية التي نزلت على الرسل السابقين . أي أن الكتب السماوية السابقة تقر ما جاء فيه) . أولم يكن لهم آية : أن يعلمه علماء بني إسرائيل (وللذلك : إقرار علماء بني إسرائيل – وهم الذين يعرفون ما في التوراة – وعلمهم به.. كان يكفي دليلا على صدقه في نظر المكيين ، لو كانوا جادين في السعي إلى الايمان به . إذ التوراة أقرب كتاب إلى يتصل به هؤلاء المكيون) .

وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾

ومع هذه التأكيدات بشأن القرآن وصدق نزوله من عند الله فإنهم لا يؤمنون به . ولو فرض أنه نزل على من هو بلسانه لكنة فقرأه فصيحا عليهم ما كانوا أيضا ليؤمنوا به . « ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين . كذلك سلكناه في قلوب المجرمين (لأن هكذا علم الايمان به قد تغلغل في نفوسهم . بسبب أنهم مجرمون في حق

---

(١) الجن : ٢٦ ، ٢٧ .

أنفسهم لو علموا حقيقة الأمر ، وفى حق البشرية كلها لآثار ماديتهم عليها.
وإذا تغلغل عدم الايمان وترسب فى النفوس ، فإنه من الصعب عليها . أن
تتحول ، مهما كان الدليل مقنعا فى جانب هذا التحول ، عما تغلغل واستقر
فيها) . لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم (وسيستمر عدم إيمانهم به ،
وبأية رسالة لله ، . . إلى أن يروا بأعينهم العذاب المفجع الذى سيلحق بهم).
فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون . (وهو عذاب يأتيهم فجأة من غير إنذار
سابق : يأتيهم فى قحط وجوع . . أو فى وباء ومرض كاسح . . أو فى مطر
غزير يتلف عليهم أسباب حياتهم ومعيشتهم : . أو فى زلزال يخرب عليهم
بيوتهم ويقبرهم تحت أنقاضها . . إلخ) . فيقولوا : هل نحن منظرون (وإذا
حل بهم العذاب فإنهم يرجون وقتئذ تأخيره لفترة أخرى ، يمكنهم أن
يستمتعوا فيها بحياتهم . وهذا الرجاء منهم ظاهرة تدل على تشبثهم بالدنيا،
وبالتالى على تأصل الاتجاه المادى فى نفوسهم) . أفبعذابنا يستعجلون ؟
(ومع كونهم لو حل بهم العذاب فجأة يرجون تأخيره إلى حين آخر ، تحت
تأثرهم بالاتجاه المادى . . فإنهم تحت تأثرهم بهذا الاتجاه أيضا يتحدون الرسول
عليه السلام باستعجال العذاب الذى ينذرهم به ، عندما يشتدون فى معارضته،
استناداً إلى طغيانهم بقوتهم المادية ، وبالرياسات التى يستمتعون بجاهها .
وهكذا الاتجاه المادى يحركهم من النقيض ..إلى النقيض.. يحركهم من الطغيان
إلى المذلة ، ومن القوة إلى الضعف والاستجداء .وذلك شأنه فى أى مجتمع ، وشأنه
فى نفس أى فرد يغلب عليه) .أفرأيت إن متعناهم سنين. ثم جاءهم ما كانوا
يوعدون. ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون (والذين يخضعون لهذا الاتجاه المادى فى
حياتهم ، لايعرفون مخرجا إلى المنطق الإنسانى . فهؤلاء المكيون عندما يرجون
تأخير العذاب النازل بهم فترة أخرى من الزمن . . عدة سنوات أخرى ،

ألا يدركون أن العذاب الذى وعدوا به آت لهم حتما؟، وأن استمتاعهم طوال هذه السنوات التى رجوها لا يجدى نفعا فى الحيلولة دون هذا العذاب ؟ فاستمتاعهم فى الفترة المرجوة لا يضيف جديداً فى حياتهم . لأنه لا يحدث نقلة أو تحولا فيها . ولو أنهم قضوها فى العدول عن الكفر ، ثم فى الإيمان بالله ، لكان هذا الإرجاء ذا أثر إيجابى . إذ أن الايمان بالله عندئذ يحول دون هذا العذاب . لأن الله كما وعد بالعقاب لمن كفر أو استمر على كفره، فقد وعد كذلك بالمغفرة وبالتوبة لمن آمن واستغفر الله ، وتاب إليه توبة نصوحا) » .

وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

والعذاب الذى ينزل بمجتمع من المجتمعات المادية لا ينزل عفواً وصدفة. وإنما هو إرادة الله تنفذ ، بعد أن يأخذ الانذار الالهى طريقه إليه ، على يد رسول من رسل الله . فالانذار للمجتمع المادى بالرسالة الالهية مقدمة ضرورية لاستتباع العقوبة التى تحل به ، إن لم يعدل سادته وكبراؤه عن الاتجاه المادى فيه ، وما يؤدى إليه من الشرك والوثنية ، والتضحية بالقيم الانسانية فى سبيل الاستمتاع بالقوة المادية وجاه الحكم والرياسة ، ومظاهر الإغراء بالمتع الدنيوية « وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى ، وما كنا ظالمين (ورسالة هؤلاء المنذرين هى تذكير الماديين فى المجتمع بما يجب عليهم من التحول نحو الإيمان بالله وحده، والعمل بهدايته فى التفكير .. والسلوك .. والروابط الاجتماعية . فإذا لم يطيعوا لم يكن الله ظالما إذا أصابهم بعذابه . لأنه بعذابه لهم يدفع طغيان ماديتهم عن الضعفاء فى البشرية . وهذا عدل بين الناس جميعا) .

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)﴾

وبعد أن أكدت السورة : أن نزول الكتاب المبين — وهو القرآن — الذى جاءت به الآية الثانية من آياتها ، وهو من عند الله ، وليس على نمط الكهانة التى يدعى نزول الشياطين بها على الكهان فى المجتمع المكى . . عادت فنفت — وهو تأكيد آخر — أنه لم تنزل به الشياطين « وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم ، وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون (وأوضحت أن الأسباب فى هذا النفى ترجع إلى سببين : السبب الأول أن الشياطين لا يجوز لهم ، وليست لديهم صلاحية من قبل الله أن تنزل بعلمه الغيبى إلى الرسل . « وما ينبغى لهم » . لأنهم عصاة وغير أمناء . والسبب الثانى أنه ليست لديهم استطاعة على حمل الرسالة من الله بعلمه الغيبى إلى الرسل « وما يستطيعون » فهم معزولون — على وجه التأكيد — عزلا تاما عن السمع لما فى علم الله « إنهم عن السمع لمعزولون » . لعدم استحقاقهم شرف الانتساب إلى طاعة الله . فهم منفيون عن الدائرة الخاصة بقدسيته . وبتفرقة السورة هنا بين القرآن .. والكهانة فى أن القرآن ينزل به ملك أمين ، بينما الكهانة يدعى أنها تنزل بها الشياطين . . وفى أن الملك الأمين ، يحمل علم الله الغيبى إلى الرسول المختار ، بينما الشياطين مبعدة ومطرودة ومعزولة عزلا أكيداً عن الاتصال بعلم الله .. وبهذه التفرقة يتضح جليا أن استراق الشياطين للسمع من علم الله فى عرشه هو ادعاء مختلق من الكهان ، تقيم عليه الكهانة المكية أكذوبتها فيما كانت تذكره للأتباع :

من حلال وحرام . وهكذا يبعد القرآن الكهانة لا عن نفسه فحسب ، وإنما من حياة الناس إلى الأبد .

وهكذا ليس القرآن خرافة ولا أسطورة من أساطير الأولين . لأن ما يبعد الخرافة من طريق الانسان . . يعتمد على الحقيقة ، ويعلمه السبيل إليها) .

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

ولذا : لا ينبغي للرسول عليه السلام — بعد هذه التفرقة الواضحة بين القرآن والكهانة — أن يركن إلى الماديين المكيين لحظة واحدة فيما يعتقدون . بل يجب عليه أن يقيم دعوته على الأصل الثابت فيها دائما ، وهو وحدة الألوهية ، وعدم الشرك فيها « فلا تدع مع الله إلها آخر ، فتكون من المعذبين (وبدعوة الرسول عليه السلام إلى الوحدة فى الألوهية يتجنب عتاب الله وعقابه . فالله سبحانه لا يغفر أبداً لمن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) . وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين (وبجانب التزامه عليه السلام بالدعوة إلى وحدة الألوهية . . فإنه كداعية وكرسول من عند الله لإحقاق الحق فى ذاته ، فى قومه وفى الناس جميعا طلب منه أن ينذر أقرب الناس إليه فى قومه ، وهم عشيرته ، طالما يقفون هذا الموقف من دعوته فلا يعارضونها فحسب ، وإنما يختلقون الأكاذيب

حولها ، كما اختلقوا الآن وجه شبه بين القرآن والكهانة . . وينذرهم بعذاب الله وعقابه فى دنياهم ، بالإضافة إلى ما أعد لهم من جزاء فى آخرتهم . والعشيرة المقربة إلى رسول الله عليه السلام ، هى زعماء قريش فى مكة . بينما يجب عليه : أن يكون مطيعا ، وودوداً لمن اتبعه من المؤمنين ، وهم من فقراء مكةوأتباع من قبل لأسياد قريش وكبرائها . وهو إذ يطيعهم ، يطيعهم لمعنى الإيمان فيهم . كما أنه إذيواجه أسياد قريش فى صراحة وعدم مهادنة.. يواجه معنى التحدى فى الكفر : فيهم . ومهمته عليه السلام منذ أن كشفت السورة عن حقيقة القرآن ، وحقيقة الكهانة هى :

أولا : فى التصميم على الدعوة لوحدة الألوهية .

وثانيا : فى الإصرار على إنذار سادة قريش وكبراء مكة .

وثالثا: فى إشعار المؤمنين معه بقيمتهم الإنسانية ،وبمساواتهم فى الاعتبار البشرى ، وذلك بالاستماع لما يقولون إن هم تحدثوا ، وباستشارتهم فيما يجد للدعوة من أحداث ومشاكل . وما أوجبه القرآن هنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أداء مهمته على هذا النحو . . هو ما يوجبه أيضا على كل من يدعو بعده إلى منهج القرآن ورسالته . لأن جوانب هذهالمهمة ــ كما ذكرت ــ هى فى الحقيقة . . عوامل النجاح فى الدعوة . إيمان لا يعتريه فتور ، وتمسك بالمبدأ الرئيسى فى مواجهة من لا يعترفون به . . وشجاعة فى المواجهة به لمن ينكرونه من سادة المجتمع وزعمائه . وتعاون تام مع من يؤمنون بأسس الدعوة له) . فإن عصوك فقل : إنى برىء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم (وبعدأن تنذر أيها الرسول ــ صلوات الله عليك ــ زعماء المجتمع المادى بمكة ، فإن استمروا على عصيانهم ، وتكذيبهم ، واختلاقهم الأكاذيب لدعوتك . . فأعلن بعدك بعداً كاملا عن

مسلكهم فى الحياة ونظرتهم إليها ، غير متأثر باستمرارهم على العصيان والمخالفة . وأعلن ذلك كخطوة أولى ، تتبعها خطوة ثانية ، وهى التوكل على الله ، والاعتماد عليه فى نجاحك فيما تدعو إليه . إذ فى اتخاذك الخطوة الأولى تعبر عن قوتك وقوة المؤمنين معك . وهى قوة نفسية تفوق القوة العددية المادية . وفى تعبيرك عن الخطوة الثانية . تستمد القوة الحقيقية من صاحب القوة وحده . فهو العزيز الذى لايغلب ، وينصر من اعتمد عليه . وهو الرحيم بالناس جميعا ، لايدفعهم إلى الشقاء . وإنما يكشف طريق الشقاء لهم ، بهدايتهم فى كتابه) . الذى يراك حين تقوم . وتقلبك فى الساجدين . إنه هو السميع العليم (والله جل شأنه عندما تعتمد عليه . سيمنحك قوة النصر عليهم ، كما سيريك قوته فى جزائهم على الاستمرار فى عبثهم وفسادهم إذ هو الذى يرى خضوعك وطاعتك له .. يراك عندما تقوم الليل فى الصلاة إليه ، وفى قراءة قرآنه .. ويراك عندما تسجد بين الساجدين له .. ويسمع ما تناديه به فى دعائك إياه ، ويعلم ما تنطوى عليه نفسك من إخلاص فى إيمانك ، وحدب على نشر دعوة الايمان به وحده) .

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾

وبعد أن وضعت الآيات . العاشرة . والحادية عشرة ، والثانية عشرة بعد المائتين . فى هذه السورة حداً بين القرآن والكهانة بالتفرقة بينهما من جانب : أن القرآن ينزل به الروح الأمين على قلب الرسول عليه السلام . . تذكر هذه الآيات الثلاث الآن . الفرق بينهما من جانب : أن الكهانة تنزل بها الشياطين على الكهان الأفاكين الآثمين . « هل أنبئكم على من تنزل

الشياطين ؟ . تنزل على كل أفاك أثيم (والشياطين سبق أن سجل القرآن في هذه السورة فى شأنهم حقيقتين :

الأولى : أنه ليست لهم صلاحية لسماع الحق من المولى جل شأنه لأنهم عصاة أشرار . « وما ينبغى لهم ». والثانية : أنه ليست لهم استطاعة وقدرة على سماعه . لأن الله يحكم علمه بالغيب دون أن يصل إلى أحد سواه ، ولا يعلم غيبه إلا من اختاره لرسالته . من الملائكة ، أو من الناس . والشياطين معزولون عن سماعه . « إنهم عن السمع لمعزولون » فالشياطين فيما تدعيه — أو فيما يدعى لها فى الكهانة المكية — من نقل علم الغيب إلى الكهان . . لاينقلون إلا كذباً ، وقولهم : الكذب دائماً . ومن تنقل إليهم الشياطين من الكهان يصورهم القرآن هنا : بأنهم أفاكون . أى مختلقون ، وعصاة آثمون) . يلقون السمع ، وأكثرهم كاذبون (وهؤلاء الكهان أو الأفاكون الآثمون — فيما تدعيه الكهانة المكية — يلقون السمع إلى الشياطين ، ويطيعونهم فيما يقولون . وما تقوله الشياطين فى ذاته كذب واختلاق . ثم إذا نقله الكهان إلى أتباعهم أضافوا إلى كذب الشياطين كذباً من عندهم ، لأن أكثرهم كذابون كذلك .

والكهانة على حقيقتها إذن كذب فى كذب . يختلقه الشياطين أولا ، وقد يضيف إليه الكهان من عند أنفسهم ثانياً .

وشتان إذن بين القرآن ، وبين الكهانة .

شتان بين الحق فى ذاته . والباطل فى ذاته .

شتان بين الأمانة فى النقل والاختلاق فيه :

شتان بين المخلص الأمين فى دعوته إلى الحق ، بين الكهان المستغلين بدعوتهم إلى الباطل ، فى جانب الحق وهو القرآن . علم المولى للغيب .. وأمانة ملك ناقل وهو جبريل . . ودعوة مخلص صادق وهو محمد بن عبد الله ورسول الله لايسأل على دعوته أجراً من أحد ممن يدعوهم .. وفى جانب الباطل وهو الكهانة : اختلاق الشياطين الأشرار . . وادعاء الكهان الأفاكين الآثمين .. واحتراف للكهان بدعوة الباطل بين الأتباع المستغلين من المكيين) .

وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾

والمهمة الثانية التى تكفلت بها سورة الشعراء هى :

إبطال اتهام الرسول عليه السلام بأنه شاعر . فارتفاع مستوى القرآن فى نظمه وتركيبه حمل بعض المكيين الماديين . وهم يعجبون بالشعر وأثره على نفوسهم . أن قالوا : إنه من قول شاعر . « **بل قالوا : أضغاث أحلام . بل افتراه . بل هو شاعر . فليأتنا بآية كما ارسل الأولون** » (١) « **إنهم كانوا اذا قيل لهم : لا إله إلا الله يستكبرون . ويقولون . أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون . بل جاء بالحق . وصدق المرسلين** » (٢) . وفى ادعائهم عن القرآن . أنه شعر . وأنه من شاعر يقصدون إبعاد القرآن عن تصويره للحق . فالشعر إذا كان فى نظرهم يجذب ويؤثر على النفوس ..

---

(١) الأنبياء . ٥ .

(٢) الصافات . ٣٥-٣٧ .

فإنهم يعرفون أيضاً : أنه قد يكون خادعاً ، وأنه لايعبر عن الصدق تماماً .
ولذا جاء رد القرآن فى دفع اتهامهم ، قائما على إبراز حقيقة الخداع وعدم الصدق فيه . « والشعراء يتبعهم الغاوون : ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ؟ وأنهم يقولون مالا يفعلون » فأوضح . أن الذين يصدقون الشعراء فيما يقولون هم الضالون .. هم الذين لايعرفون خطا ثابتا يمثل الطريق السوى فى الحياة .. هم الحيارى الذين تشدهم إليها تيارات الحياة المختلفة . ثم أوضح : أن الشعراء ينتقلون من النقيض إلى نقيضه فيما يقولون : فى الموضوع الواحد ، أو فى الشخص الواحد ، فهذا إنسان يعطى بسخاء على ما يقولون ، يقولون فيه مديحا لاتعرف المبالغة حداً فيه . وهو نفسه إذ يمسك عن العطاء على ما يقولون ، يقولون فيه هجاء لاتعرف المبالغة حداً فيه كذلك .

وقولهم إذن فى وصف هذا الإنسان قول متناقض . وبعيد عن الصدق لأن الصدق لايعرف فى أى جانب من الجانبين . أفى جانب المديح . . أم فى جانب الهجاء ! ؟ وربما فى قولهم المديح فيه أو الهجاء فيه. لايسايرون عمليا فى تصرفاتهم ومواقفهم : قولهم فيه . وهم بذلك ينافقون . وإذن من يتبع الشعراء هو من لايقف على الحق من ذاته . يتبعهم اليوم ويتبعهم غداً ، وهو فى يومه وفى غده لايعرف . متى أصاب فى التبعية ومتى أخطأها .
والشعر إذن يتسم قائله بالنفاق. ويتسم موضوعه بالتناقض. ويتسم الصدق له بالحيرة والغواية. والقرآن لأنه جاء بالحق فهو لايقبل التناقض كالشعر ولأن الرسول عليه السلام كان قدوة عملية لما جاء فيه ، كان مؤمنا لاتنفذ إلى إيمانه شائبة نفاق كالشعراء . ولأن الذين يتبعونه كانوا على هدى من الله لاتتطرق الحيرة إلى تفكيرهم ، واعتقادهم وسلوكهم ، كأولئك الغاوين الذين يتبعون الشعراء) .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

ولكن يستثنى من طابع الشعر والشعراء ، والتابعين لهم : نوع يختلف تماماً . هو ذلك النوع الذى يقوله مؤمن بالله ، تمرس على العمل الصالح ، واختبر في إيمانه مع نفسه أو مع أعدائه ، فانتصر عليهم بعد ظلمهم إياه . فى التضييق عليه فى الإيمان ، أو فى تحديه فى الخصومة.أو فى تتبعه واضطهاده إن آثر السلامة فى عزلته : « إلا الذين آمنوا ، وعملو الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ماظلموا (فهؤلاء بما توفرلهم من صفات الإيمان ، والعمل الصالح . ومراقبة الله والخشية منه فى كل تصرف . ومن الجهاد فى سبيله . إن قالوا الشعر قالوه صدقا . وهم صادقون فيما يقولون . وكان شعرهم دليلا وهادياً لمن هو فى حيرة الهوى والضلال .

والقرآن بما يقوله فى الشعر والشعراء . إناستنكر الشعر فإنما يستنكر التوجيه فيه إلى الضلال .

وإن أنكر على الشعراء فإنما ينكر عليهم الكذب والنفاق فيما يقولون .

وإن رضى عن الشعر فإنما يرضى عن الهداية فيه .

وإن استحسن الشعراء فإنما يستحسن دعوتهم إلى الحق والهداية فيما يأتون به . وهو فى كلتا الحالين :

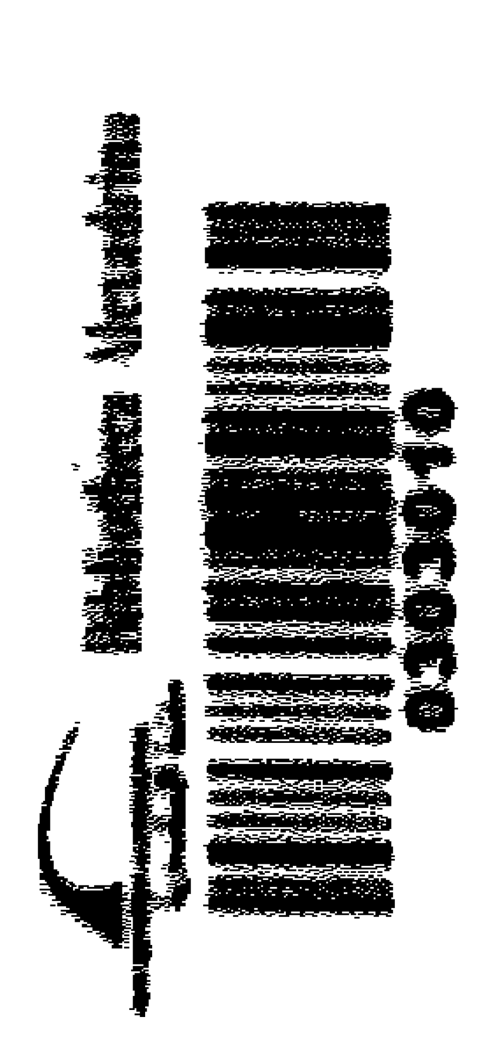
إما أن يخول باستنكاره دون خطأ . أو يدعو باستحسانه إلى صواب) وسيعلم الذين ظلموا . أى منقلب ينقلبون (وتختم السورة آياتها بإنذار . أن المعارضين

للقرآن من المكيين الماديين، ولدعوة الرسول عليه السلام منهم ، والذين ظلموا أنفسهم بمعارضتهم له وظلموا البشرية بأن تحكموا فى قيادة بعض مجتمعاتها على أساس من ضلال المادية ، وحالوا بين الضعفاء بينهم ونور الهداية الإلهية ، بما كان لهم من طغيان بالقوة المادية وحدها . : تختم هذه السورة بإنذار هؤلاء : بأن نهاية أمرهم ستكون نهاية يصعب وصفها وتحديدها ، وأنهم سيرون بأنفسهم هذه النهاية . وعندئذ سيعلمون ماهى عليه من حقيقة رهيبة) .

* * *

رقم الايداع ٧٦/٤/٢٢
الترقيم الدولى × ـ ٢٨ ـ ٧٢٣٦ ـ ٩٧٧

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩



دار غريب للطبـــاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلي - القاهرة)
تليفون ٢٢٠٧٩